الفصل الثامن

أمير المؤمنين عثمان بن عفان ٢٤هـ = ٦٤٤م - ٣٥هـ = ٦٥٦م

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة وأمها البيضاء، أم حكيم بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ، وكانت توأما لعبد الله والد النبى ﷺ فعثمان بهذا أموى وفى عرقه لأمه دم هاشمى[1]، ويجتمع مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف، ويكنى أبا عبد الله، وأبا عمر.

ولد فى السنة السادسة بعد عام الفيل، وقيل فى الخامسة بعد ميلاد رسول الله ﷺ فى مدينة الطائف ثالثة مدن الحجاز بعد مكة والمدينة المنورة، والطائف كانت ولا تزال روضة الحجاز، يقصد إليها سراة قريش للرفه من حرارة الصيف فهواؤها جميل، وفاكهتها موفورة، ولا تزال إلى الآن المصيف لسراة القوم من سكان الجزيرة العربية.

وعثمان رضى الله عنه ناشئة ثراة فإلى أسرته كانت إمارة قوافل التجارة وكان لعثمان فيما ورثه عن أبيه ما جعله كثير المال واسع الثراء، وقد شب على كريم السجايا وحسن السيرة محسنا إلى أهله يفرق عليهم من النعم الكثيرة، فأحبوه حبا جما حتى صار مضرب الأمثال لنساء قريش فكن وهن يرقصن أولادهن يقلن:

أحبــك والـرحمن حب قريش عثمان

كما كان ميالا إلى مكارم الأخلاق، يدل على ذلك قول أمه لما قال لها زوجها "عقبة ابن أبى معيط" الذى تزوجها بعد موت أبيه إن ابنك قد صار ينصر محمدا، فلم تنكر ذلك من ابنها وإنما قالت: "ومن أولى به منا؟ أموالنا وأنفسنا دون[2] محمد".

إسلامه:

أخرج ابن عساكر عن الشعبى قال: كان عثمان فى قريش محببا يرجعون إليه ويعظمونه، ومن المعلوم أن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لم تكن له كبوة لما دعاه الرسول ﷺ

(١) الطبرى جـ٤ ص ١٦٩، ومروج الذهب ج٢ ص ٣٤١، والبداية والنهاية ج٧ ص ١٦١.
(٢) ذو النورين عثمان بن عفان – العقاد ص ٣٣.

إلى الإسلام، كما أخبر بذلك ﷺ فى الحديث الصحيح، وكذلك عثمان لما دعاه أبو بكر الصديق إلى الإسلام فقد أجابه من غير تردد حين أقبل عليه يحدثه عن رسول الله ﷺ، وعن تعاليم الإسلام فلما ذهبا، ودخلا على الرسول ﷺ أسر أبو بكر إليه فى أذنه، فقال الرسول ﷺ (يا عثمان أجب الله إلى جنته فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه).

وما أعجب هذه العبارة "أجب الله إلى جنته" وكلمة "إليك" فإن الرسول ﷺ لم يقلها لغيره ممن دعاه إلى الإسلام، فأسلم عثمان رضى الله عنه قبل دخول النبى ﷺ "دار الأرقم" وكان إسلامه مع الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، فهو من السابقين الأولين الذين أحرزوا فضل السبق، وفخر القيام بنصرة الدين، وكان سنه قد جاوز الثلاثين، ومن تقويم أبى بكر لعثمان وتقديره له أنه قال له حين دعاه إلى الإسلام: ويحك يا عثمان، إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأصنام يعبدها قومنا، أليست حجارة؟ لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى شيئا قال: بل والله لكذلك".

كان عثمان رضى الله عنه محببا من رسول الله ﷺ، كريما عليه ارتبط بالمصاهرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابنتيه: رقية وأم كلثوم، ولما ماتت كان شديد الحزن عليها، ولا يرى إلا محزونا، فلما رآه الرسول ﷺ، قال له مالى أراك محزونا، فقال له: انقطع صهرى منك، فقال له الرسول ﷺ إن صهرك منى لا ينقطع، وقال ﷺ"لو أن لنا ثالثة لزوجناك" وهذا يدل على سمو مكانته و حب رسول الله ﷺ له.

وكان رضى الله تعالى عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقال ﷺ: (لكل نبى رفيق، ورفيقى فى الجنة عثمان).

ولقد كان عذب الروح حلو الشمائل محببا إلى الناس لأنه كان متعففا عما يشينه، متخلقا بالخلق الذى لازمه طول حياته وهو خلق الحياء.

ولما اشتد الأذى بالمسلمين فى مكة، ورأى ﷺ ما يصيب أصحابه من الإيذاء نصحهم بالهجرة إلى الحبشة، فكان من أول المهاجرين إليها هو وزوجته رقية، فقال النبى ﷺ (صحبهما الله، إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط) ثم رجع من الحبشة إلى مكة فلما كانت الهجرة إلى المدينة هاجر إليها، وقد عاشت رقية معه إلى أن توفيت بالمدينة فى اليوم الذى نصر الله تعالى المسلمين على مشركى قريش فى غزوة بدر الكبرى التى لم

يشهدها عثمان لأنه كان قائما على تمريض زوجته رقية، ورسول الله ﷺ أسهم له مع من كان معه فى بدر، فعد بدريا.

من فضائله: لما نزل عثمان المدينة بذل ماله ونفسه فداء للرسول ﷺ، وللمسلمين من أجل إعزاز الدعوة، فقد كان كريم النفس جوادا بماله سخى اليد فى طاعة الله تعالى فقد احتاج المسلمون إلى الاستسقاء من "بئر رومه" وكانت ليهودى يبيع للمسلمين ماءها، فقال رسول الله ﷺ" من يشترى بئر رومه فيجعلها للمسلمين يضرب بدلوه فى دلائهم وله مشرب فى الجنة".

فأتى عثمان اليهودى فساومه، فأبى أن يبيعها كلها له، فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم، وجعلها للمسلمين، ولما رأى اليهودى أن المسلمين قاطعوا الأيام التى كانت لليهودى، قال: أفسدت على بئرى، فباعه، النصف الآخر[1].

ولما رأى الرسول ﷺ أن يوسع مسجد المدينة قال: "من يزيد فى مسجدنا، فاشترى عثمان رضى الله عنه موضع خمسة دور، فزادها فى المسجد.

وشهد المغازى كلها مع رسول الله ﷺ إلا بدرا حيث كان يمرض زوجته رقية رضى الله عنها ولم يكن هذا التخلف إلا طوعا لأمر النبى ﷺ ولم يكن باختيار منه أو إحجام عن خطر مخيف.

كما كان يكتب ما ينزل به الوحى على رسول الله ﷺ، وكان لأبى بكر ثم لعمر رضى الله تعالى عنهم مستشارا فى مهام الأمور أمينا بكل ما تتطلبه الأمانة، وكان أحد الستة الذين قال فيهم عمر إن رسول الله ﷺ مات وهو عنهم راض.

وكان سفيرا لرسول الله ﷺ إلى قريش فى الحديبية، يوم همهم عزم الرسول ﷺ على أداء عمرة، وقد استخدمت قريش مع عثمان رضى الله عنه حيلة الإغراء بتيسير العمرة له لما وصل إلى مكة، والتقى بزعماء قريش للتفاهم معهم حول موقفهم من رسول الله ﷺ، ومنعهم له من دخول مكة لأداء العمرة، ولكن الحيلة لم تنفع، لأن صحبته وأخوته كانت فى ذات الله تعالى، تبادل فيها الرسول وعثمان الوفاء بظهر الغيب، ذلك أن شائعة راجت تقول: إن قريشا قتلت عثمان لما بعثه الرسول ﷺ إليهم إلى مكة ليعرفهم بحقيقة مقدمه، وأنه لا يبغى حربا، وإنما يريد عمرة له ولمن معه فقط، فلما تأخر عثمان عن العودة، وشاعت الأخبار أن عثمان قد قتل – هنا تقاطر وتكاثر الجمع المصاحب لرسول الله ﷺ حوله

(١) الطبرى ج٤ ص ١١٩، والبداية والنهاية ج٧ ص ١٩٩ – ٢٠٠.

يبايعونه بيعة الرضوان تحت الشجرة التى عرفت بهذا الاسم بعد ذلك "بشجرة الرضوان" وعز على رسول الله ﷺ ألا يكون عثمان فى طليعة المبايعين، ويحرم من فضل هذه النعمة التى رضى الله تعالى على من بايع الرسول ﷺ فيها بقوله تعالى:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾. [سورة الفتح: آية ١٨]

وقد سميت بيعة الرضوان، لأن الصحابة بايعوا على أن يبذل كل منهم نفسه فى سبيل الله تعالى.

وحتى لا يحرم عثمان من فضل هذه البيعة، فإن الرسول ﷺ ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: اللهم إنى أشهدك أن هذه بيعة عثمان فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم[1].

وحين أزمع الرسول ﷺ على الخروج لغزو الروم فى "تبوك" وجهز جيش العسرة، شارك عثمان فى هذا بقدر ثلث حاجة الجيش، فقد جهزهم بما يزيد على ثلاثمائة بعير كاملة العدة، وبألف دينار وضعها فى حجر رسول الله ﷺ ليعين بها على تجهيز الغزاة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم) وكررها مرتين.

لقد كانت فضيلة السخاء هى فضيلته حين يعز السخاء على أمثاله من ذوى الثراء، فإن كان بعض الصحابة قد سبقوه فى ميدان الجهاد، فكأنى به رضى الله عنه وقد آل على نفسه أن يسبقهم فى ميدان الجود والسخاء من أول إسلامه إلى ختام حياته.

وقد ابتلى عثمان رضى الله عنه بتهمة المال الكثير خاصة أيام خلافته حين كان يعطى أهله منه، لكنه مع هذا كان يعرف حق الله تعالى فيه قبل أن يعرف حق أهله، فقد أنفق قبل الخلافة وبعدها مما أشرنا إليه.

والظاهرة العجيبة فى حديث رسول الله ﷺ الذى وصفه فيه بخلق الحياء، فهذه عائشة رضى الله عنها، تحدث أن رسول الله ﷺ كان فى بيتها، وقد كشف عن فخذيه وساقيه، ولم يسترهما حين دخل عليه أبو بكر وعمر، فلما دخل عثمان سترهما، فقالت له عائشة فيما ذلك فقال (ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة)؟

وفى رواية أخرى أنه كان صلى الله عليه وسلم مضطجعا فى بيته، ودخل عليه أبو بكر

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٥٢.

وعمر فلم يعتدل، ولما دخل عثمان اعتدل، فقالت عائشة: ما معناه لقد اعتدلت لعثمان ولم تعتدل لأبى بكر فقال "ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة"[1].

البيعة لعثمان:

كان عمر يفكر قبل مصرعه بمدة طويلة فيمن يلى الخلافة بعده لكن كان مترددا؟ هل يعين أم لا؟ وإذا عين فمن يكون؟ فلما طعن وطلب إليه العهد بالخلافة كان لا يزال فى تردده، ولكنه رأى اللحظة الحاسمة قد حانت فرشح الذين مات الرسول وهو راض عنهم والذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم: "إنهم من أهل الجنة" وكان من هؤلاء المبشرين سعيد بن زيد بن نفيل، ولكنه لم يدخله فيهم لقرابته له، والمرشحون هم: عثمان، على بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف خالا رسول الله، والزبير حوارى رسول الله – الحوارى: الناصر – وابن عمته، وطلحة بن عبيد الله، وجعلها شورى بينهم.

وبعد أن استقر رأيه على هذا أرسل إلى الخمسة الموجودين – لأن طلحة كان غائبا فى سفر – وقال لهم: إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس، وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، إنى لا أخاف عليكم إن استقمتم، ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس، فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا فيها، فاجتمعوا وتحادثوا فارتفعت أصواتهم فأمرهم بتأجيل اجتماعهم لما بعد موته، ثم يجتمعون للتشاور فى اختيار واحد فى مدى ثلاثة أيام، وقال: ليصل بالناس صهيب (الرومى) ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا، ولا شىء له، وطلحة شريككم فى الأمر فإن قدم فى الثلاثة فأحضروه أمركم وإن مضت قبل قدومه فامضوا أمركم، ثم بعد أن تحدث عن بعض المرشحين وما فيه من صفات، قال لأبى طلحة الأنصارى: إن الله قد أعز بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلا وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى تختاروا رجلا منهم: وقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم: وقال لأبى طلحة والمقداد: إن اجتمع خمسة على رجل وأبى واحد فاقتلوه وإن رضى أربعة واحدا وأبى اثنان فاقتلوهما، وإن رضى ثلاثة رجلا، وثلاثة رجلا، فحكموا عبد الله ابن عمر، فمن حكم لهم فمنهم الوالى، وإن لم يرضوا حكمه فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

---

(١) البداية والنهاية ج٧ ص ٢٠٠.رواه مسلم بشرح النووى ج١٥ ص ١٦٨، وروى بروايات أخرى فى ص ١٦٩.

وبذلك رسم لهم عمر طريق الاختيار، وأعد له، وكأنما كان جرحه النزاف فى غير عمر، وكأن عمر ملك كريم يسمو على الآلام الحسية، وأحكام الطبيعة البشرية، فلم تلهه آلامه وإن عظمت عن تدبير أمر المسلمين تدبير حازم متمتع بكل قواه، وعبقريته النادرة.

فلما مات عمر وأخرجت جنازته تصدى على وعثمان للصلاة عليه، فقال عبد الرحمن: كلاكما يحب الإمرة لستما من هذا فى شىء هذا صهيب استخلفه عمر يصلى بالناس حتى يجتمع الناس على إمام.

وبعد أن دفن، اجتمع المرشحون فى مكان اختلفوا فى تحديده، هل هو بيت عائشة أو بيت المسور بن مخرمة أو بيت المال، أو بيت فاطمة بنت قيس الفهرية؟ ويظهر أن سبب اختلاف المراجع هو تعدد الجلسات والاجتماعات، وكانوا خمسة لأن طلحة كان لا يزال غائبا، وكان معهم عبد الله بن عمر، وجعلوا أبا طلحة حاجبا، وتناقشوا فى الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة: أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تتنافسوها لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمر بها.

ولما طال الأمر ولم يصلوا إلى شىء قلق عبد الرحمن بن عوف، وفكر فى وسيلة لإنهاء هذا الموقف، وهداه تفكيره إلى الاقتراح الآتى: وهو أن يتنازل واحد منهم عن حقه ويتولى اختيار واحد من الخمسة الباقين على أن يحلف بالله ليؤثرن الحق، ولا يتبعن الهوى، ولا يخص ذا رحم لرحمه ولا يألو لأمته نصحا، فلما لم يتنازل أحد خلع هو نفسه وحلف بالله على أن يتبع الحق، وحلفوا له على الرضا بحكمه، فاختلى عبد الرحمن بعلى، وقال له: لو لم تكن فى الشورى فمن تختار؟ فقال عثمان: واختلى بعثمان وسأله نفس السؤال فقال على: وهكذا كلم سعد والزبير، فقالا عثمان: وبذلك صار الأمر فى عنق عبد الرحمن فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله، ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا قال له عثمان، حتى إذا كانت الليلة التى فى صبيحتها ينتهى الموعد المحدد، أتى منزل المسور بن مخرمة، وأمره أن يدعو إليه الزبير وسعدا، فدعاهما فبدأ بالزبير فقال له: خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر: فقال الزبير نصيبى لعلى: وطلب عبد رحمن من سعد وكان ابن عمه أن يتنازل عن نصيبه فى الخلافة فيصرفه عبد الرحمن إلى من يشاء.

فقال له سعد: إن اخترت نفسك فنعم، وإن اخترت غيرك فعلى أولى من عثمان: وألح

سعد على عبد الرحمن أن يختار نفسه فأبى لأنه أعطى موثقا بخلع نفسه، وقال: لا يقوم أحد بعد أبى بكر وعمر فيرضى عنه الناس: ثم انصرف الزبير وسعد.

ومن ذلك يتبين لنا أن الرجلين (الزبير وسعد) تغير موقفهما، ويبدو لنا أن سبب هذا التغيير إنما يرجع إلى كلام حدث من على لهما بعد الموقف الأول وبيان أنه أحق بالخلافة (راجعوا ابن الأثير ج٣ ص ٣٦) وأرسل عبد الرحمن المسور إلى على فلما أتى ناجاه طويلا وهو لا يشك أنه صاحب الأمر ثم أرسل المسور أيضا إلى عثمان فجاء فحادثه حتى فرق بينهما الصبح.

فلما صلوا الصبح جمع الرهط وأرسل إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد، فاجتمعوا فقال سعد "أيها الناس إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم، وقد علموا من أميرهم؟ فقال سعيد بن زيد: إنا نراك لها أهلا: فقال: أشيروا على بغير هذا: فقال عمار بن ياسر: إن أردت ألا يختلف الناس فبايع عليا: وقال عبد الله بن أبى السرح: إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان، وتشاتم عمار وابن أبى السرح: وتكلم بنو هاشم وبنو أمية، وكثر الكلام فقال سعد: يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس: فقال عبد الرحمن: إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا، ودعا عثمان، وقال له: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله، وسنة الخليفتين من بعده، فقال: نعم، ووافقه على ما أراد، فبايعه عبد الرحمن بالخلافة وبذلك أصبح عثمان الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ، ثم قدم طلحة فى اليوم الذى بويع فيه عثمان فقيل له: إن الناس قد بايعوا عثمان، فقال: أكل قريش راض به؟ قالوا: نعم، فأتى عثمان فقال له عثمان: أنت على رأس أمرك، وإن أبيت رددتها، قال أتردها: قال نعم، قال طلحة: أكل الناس بايعوك؟ فقال نعم، قال طلحة رضيت لا أرغب عما أجمعوا عليه، وبايعه.

وقد فرغوا من مبايعته يوم ٢٩ من ذى الحجة سنة ٢٣هـ - ٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ فاستقبل بخلافته هلال المحرم سنة ٢٤هـ.

أول خطبة لعثمان ومنهجه فى الحكم:

كان أول خطاب لعثمان بعد بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنكم فى دار قلعة - لا تدوم - وفى بقية أعمار فبادروا أجالكم بخير ما تقدرون عليه، ألا إن

الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا، إلى أن يقول: واطلبوا الآخرة: إلى آخر ما قال (راجعوا الخطبة فى الخضرى ج٢ ص ٤٠ ، ٤١).

ونحن إذا نظرنا فيها وجدناها وعظا، ويظهر أن حياءه غلب عليه فلم يشأ أن يشتد على الناس فى مواجهتهم، ويظهر أيضا أنه شعر أن من واجبه أن يتحدث كسابقيه عن منهج حكمه فكتب كتابا إلى أمراء الأمصار وأمراء الأجناد، ضمنه مبادئ عمر بن الخطاب، مما يظهر بوضوح أنه قد اعتزم اتباع سياسة سلفه، ومنه: "إنكم حماة الإسلام وذادة المسلمين، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا،" ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم، ويستبدل بكم غيركم ... الخ.

وكتب كتابا آخر إلى عمال الخراج، أما بعد: فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، فخذوا الحق، وأعطوا الحق، والأمانة الأمانة قوموا عليها ... إلى أن يقول: فلا تظلموا اليتيم، ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم، وكتب كتابا ثالثا للعامة، أما بعد: فإنكم بلغتم ما بلغتم بالاقتداء، فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع، بعد اجتماع ثلاث فيكم، تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ... الخ[1].

وفى الكتاب الثالث نرى أن عثمان قد شعر بأن المجتمع بدأ يتطور ويسير وجهة أخرى، وكان لذلك التطور أكبر الأثر فى الثورة التى أودت بحياة عثمان، ومزقت أوصال الأمة.

عرفنا فيما سبق أن عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان وجفينة وابنة المجوسى أبى لؤلؤة فعقب تولية عثمان الخلافة جمع المسلمين بالمسجد، واستحضر بن عمر، وقال لهم: أشيروا على فى هذا، الذى فتق فى الإسلام ما فتق، فقال على بن أبى طالب: أرى أن تقتله، فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم؟ وقال عمرو بن العاص: إن قد أعفاك أن يكون هذا الحدث ولك على المؤمنين سلطان، فقال الخليفة: أنا وليهم وقد عفوت عنه وجعلتها دية احتملها فى مالى.

وقد أنكر على الخليفة ذلك على وجماعة من المسلمين، وعابوا على عثمان العفو فى

(١) يحسن بكم مراجعة هذه الكتب فى الطبرى ج٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٨، وأشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ج٤ ص ٧٥١ - ٧٦٥.

حدود الله وظل على متمسكا بوجهة نظره حتى ولى الخلافة فطلب عبيد الله ليقتص منه للقتل فهرب إلى الشام وانضم لمعاوية بن أبى سفيان، وحارب عليا، وقتل يوم صفين.

ومما لاشك فيه أن عبيد الله قد أفتأت على حق الخلافة (الحكومة) فى مباشرته القصاص بنفسه، ولو ترك الأمر لكل فرد يأخذ حقه بنفسه لفسدت أحوال الأمة فهو قد أخطأ مرتين لأنه قتل غير القاتل، ولأنه تولى القصاص بنفسه من غير أن ينتظر حكم ولى الأمر ولكن يجب تقدير الظروف المحيطة بالحادث، وأثرها فى نفسية عبيد الله فهو قد اعتقد أنها مؤامرة واسعة النطاق مدبرة ضد أبيه، وضد الخلافة الإسلامية، فأصابته حالة نفسية شديدة فقد معها شعوره.

ويؤيدنا فى هذا قتله لابنة فيروز (القاتل) فإنه لو كانت حالته عادية ما خفى عليه أن قتلها ذنب عظيم، وعثمان لاحظ تلك الحالة فأسقط القصاص عنه – ونعم ما صنع – وذلك مبدأ قضائى تسير عليه أكثر الدول فمثلا القانون الإنجليزى: يجعل الاستفزاز من مسقطات القصاص، وكذلك القانون السودانى وفوق ذلك فالقانون فى أغلب الدساتير يتيح للحاكم العفو عن الجانى عفوا تاما أو تبديل العقوبة من القتل إلى الحبس، وهذا بلا شبهة قوية، فما بالنا بشبهة قوية كالتى نحن بصددها.

وأما إصرار على بن أبى طالب على قتله فى خلافته، فما كان ينبغى ذلك لأنها قضية فصل فيها سلفه باتفاق كبار المسلمين، لأن مثل ذلك يقلل الثقة فى أحكام الخلفاء ونزاهتهم عند العامة.

ومن الناحية السياسية: فقد حرم نفسه معونة بطل كبير مثل ابن عمر ومعونة أهله من بنى عدى فكانوا عليه (راجعوا فى هذا الموضوع: الكامل لابن الأثير ج٣ ص٣٩، والفتح الإسلامى ص ٢٦، والخلفاء ص ٢٥٤ ، ٢٥٥).

الفتوح فى عهد عثمان:

كان ما حدث من الفتوحات الإسلامية فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر لبلاد الفرس حدثا هائلا، فإنهم ما كان يدور بخلدهم أن عرب الصحراء سيفتحون بلادهم، ولكن ذلك قد كان وفتحت بلادهم، وقدموا الطاعة للمسلمين ولم تكن هذه الطاعة فى نظرهم إلا ريثما تواتيهم الفرصة لإرجاع بلادهم، وإعادة مجدهم وقد ظنوا أن الفرصة مواتية فى عهد عثمان، فانتقض كثير من البلاد ومنعوا ما صالحوا المسلمين عليه فعمل عثمان على

إخماد حركاتهم وردهم إلى الطاعة، ولم يقف عند هذا الحد: بل فتح بلادا جديدة وسارت الفتوحات الإسلامية بنشاط عظيم، واستمرت فى سيرها إلى أن كانت الفتنة وقتل الخليفة.

وسوف لا أتحدث عن هذه الفتوح بالتفصيل، بل سأعطيكم صورة عنها لتعرفوا مدى نشاط المسلمين، وما وصلوا إليه من مجد، وسنقسم هذه الفتوح بحسب البلاد التى تم فتحها:

أ- **البصرة**: وأول هذه الفتوح ما قام به عبد الله بن عامر، والى البصرة، بعد أبى موسى الأشعرى، فقد سار بجيوشه إلى مقاطعة فارس المجاورة لحكومته فأخضعها، وبدأ بعدها سلسلة حملات أخرى شرقا وشمالا كللت كلها بالنجاح فأخضع نيسابور، وسرخس ومرو، من بلاد خراسان، ثم اشتبك فى معركة كبرى عند خوارزم (على نهر جيحون) حطم فيها القوات الفارسية، وانتصر انتصارا عظيما، دفعه إلى التوغل فى بلاد التركستان حتى مدينة بلخ وأدخلها فى حوزة الإسلام، وظل ابن عامر عاما كاملا فى جهاده حتى تم إخضاع القسم الشرقى من بلاد فارس للإسلام من جديد ثم رجع يسوق أمامه أربعين ألف أسير من الفرس فيما يقال، وكان ذلك سنة ٣١ هـ الموافقة سنة ٦٥٢م وفى هذه السنة ترك ابن عامر البلاد بغية الحج وأقام الأحنف بن قيس ومجاشع بن مسعود والربيع بن زياد الحارثى نوابا عنه فى القيام بالقيادة وهؤلاء أرجعوا سلطة الإسلام فى البلاد التى انفجرت فيها الثورة أمثال كرمان وسجستان وطخارستان، فأعادوها إلى سيرتها الأولى، ورجع سلطان الإسلام حتى هراة وكابول وغزنة، وبذلك تم القضاء على قوات الفرس، وتسمى الفتوحات السابقة التى تمت فى بلاد فارس وخراسان (فتوح أهل البصرة) وفى سنة ٣٢هـ وهى السنة الثامنة من حكم عثمان، وصل إلى علم المسلمين أن بعض أتباع يزدجرد ملك الفرس قد اختلفوا معه وطاردوه، واستمروا فى مطاردته حتى استقر به النوى فى بيت طحان بمرو فدخلوا عليه وقتلوه، وبقتله زالت دولة الساسانيين، وبموته انتهى عهد الأكاسرة إلى الأبد.

الكوفة:

وبينما كانت جيوش البصرة قائمة بإخضاع الثورة فى ناحيتها، ثارت قبائل الترك والخزر وأرمينيا فى شمال العراق، فخرجت أذربيجان عن الطاعة ومنعت ما كانت قد رضيت به من الجزية فغزاها الوليد بن عقبة والى الكوفة حتى رضيت أن تؤدى ما كان عليها فى عهد عمر وسير حبيب بن مسلمة الفهرى إلى أرمينية جيشا شتت به شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة، ويروى أن الذى سار إليها إنما هو سلمان بن ربيعة الباهلى وأن حبيب بن مسلمة كان مددا له، وأيا ما كان فقد انتصر المسلمون، وتم إخضاع البلدين.

وفى عهد إمارة سعيد بن العاص على الكوفة – بعد الوليد – زحف الترك والخرز يريدون إيقاف المسلمين عن التقدم فسار سعيد بجيش كبير فيه الحسن والحسين والعبادلة الأربعة أبناء العباس، وعمر، وعمرو بن العاص، والزبير، وحذيفة بن اليمان، وغيرهم من الأعلام لتأديب الخارجين ولكنه انهزم أمام هذه الجموع فى بلاد لم يألفها المسلمون، وطلب من الخليفة إمداده بالجيوش فأرسل عثمان نجدات من الشام بقيادة عبد الرحمن بن ربيعة، ونظم المسلمون صفوفهم، ثم التقوا بالعدو فى شمال أذربيجان ولكن المسلمين انهزموا أيضا، وأصيب القائد عبد الرحمن بن ربيعة، غير أن أمثال تلك الهزيمة لم تؤثر فى معنوية المسلمين، ولم تدفع العدو إلى مواصلة التقدم لطرد المسلمين عن بلادهم، لأن أنباء النصر فى الميادين الأخرى كانت ذات أثر كبير فى نفوس المسلمين وأعدائهم، وتسمى الفتوح فى أرمينية وأذربيجان وطبرستان (فتوح أهل الكوفة).

الشام:

كانت الإمارة على بلاد الشام قد آلت إلى معاوية بن أبى سفيان، وبينما كان مشغولا بتنظيم الأمور الداخلية، إذ فاجأه البيزنطيون بجيش تقدموا به من آسيا الصغرى وكان ذلك فى السنة السادسة والعشرين من الهجرة الموافقة سنة ٦٤٧م.

باغت البيزنطيون معاوية ولم يكن لديه من الجيوش ما يستطيع به الوقوف لدرء هذا الخطر الفجائى بسبب استمرار السلام فى الشام طويلا ولذلك طلب من الخليفة النجدة فأنجده بثمانية آلاف فألحق بالعدو هزيمة منكرة، ثم طاردوه حتى تم له فتح الجزء الشرقى من آسيا الصغرى، ثم أراد أن يصل فتوح الشام بفتوح فارس فاتجه إلى أرمينية ثم إلى طبرستان فى جنوب بحر الخرز (قزوين) ثم عرج شمالا حتى وصل تفليس وشواطئ البحر الأسود وأطراف آسيا الصغرى الشمالية، ووقعت بينه وبين البيزنطيين وقائع كثيرة كان ينشبا فى صيف كل سنة حتى دوخ العدو وأجلاه عن كثير من الأراضى، وأصبح معظم آسيا الصغرى تحت سلطانه، وأطل على بحر مرمرة وعلى القسطنطينية فهاجمها، ولكنها استعصت عليه، وكان ذلك فى أواخر خلافة عثمان، فقفل راجعا إلى الشام وفى عودته ضرب كثيرا من المعاقل والحصون مثل عمورية.

مصر:

لما استولى المسلمون على الإسكندرية بقى الكثير من الروم بها، انتهزوا فرصة انشغال

المسلمين بالفتوح فى المغرب، وكاتبوا هرقل - قيصر الروم - وأخبروه بقلة من عندهم من المسلمين، وطلبوا منه النجدة، فأرسل إليهم أحد قواده فى أسطول عظيم، وكان ذلك سنة ٢٥هـ.

ويظهر أن خطة الروم كانت تنطوى على الهجوم من الإسكندرية حيث تنضم إليهم قوات الروم الموجودة فى إفريقية، ثم يتجهون شرقا لمقابلة جيشهم الثانى الذى ينقض على المسلمين من آسيا الصغرى بعد أن يتم لهم الاستيلاء على مصر، ولكن عمرو بن العاص أفسد عليهم خطتهم، فإنه سار إليهم من الفسطاط وعمل على أن يتقدم الروم داخل البلاد، ونجح فى خطته ثم التقى بهم فى جملة معارك أقنعتهم بتفوق المسلمين البرى، فولوا راجعين إلى الإسكندرية فدخلوها وتحصنوا بها فألح عليهم عمرو حتى دخلها بالسيف عنوة، ثم قتل قائد الروم وكثيرا منهم، واستولى على كثير من سفن الأسطول، ثم هدم سور الإسكندرية - وكان قد نذر إن فتحها ليفعلن ذلك - ثم رجع إلى مصر، وكان ذلك آخر عمل جليل أداه عمرو للدولة الإسلامية وكانت مكافأته عليه عزله نهائيا عن إمرة مصر، وكان ذلك من عناصر الفتنة ضد عثمان.

اتساع الدولة الإسلامية زمن عثمان:

ثار أهل فارس وانقلبوا على أميرهم وقتلوه، فخرج إليهم أمير البصرة عبد الله بن عامر فى السنة الحادية والثلاثين هجرية على رأس جيش كثيف، واشتبك معهم فى مواقع كبيرة فى مرو وخوارزم وغيرهما، واستطاع أن ينزل بهم هزائم منكرة فى جميع هذه المعارك وبذلك فتح تلك البلاد مرة أخرى، وعاد أهلها جميعا إلى طاعة المسلمين، كما أنه صالح أهالى بعض الأمصار الفارسية الأخرى مثل نيسابور وبلخ، ثم عاد إلى البصرة بعد أن استتب فيها الأمن والنظام والولاء للدولة الإسلامية فى تلك البقاع.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تلك المعارك فى هذا العام قد شهدت الفصل الأخير من حياة آخر ملوك الإمبراطورية الساسانية وهو يزدجر الثالث الذى لقى مصرعه على يد أحد أعوانه وهو حاكم مرو الفارسى، وطويت بموته الصفحة الأخيرة فى قصة هذه الإمبراطورية العريقة إذ أصبحت منذ ذلك الزمن، وإلى الآن داخلة فى إطار الإسلام.

فى أرمينية:

وكان المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب قد استطاعوا أن يستولوا على أرمينية وينتزعوا

هذا الإقليم من قبضة الروم، غير أن الحامية الإسلامية التى تمركزت هناك اضطرت إلى الجلاء عن هذه المنطقة بعد أن أحاطت بهم حشود كثيفة من جنود الأعداء.

فأصدر عثمان بن عفان أوامره إلى معاوية بن أبى سفيان والى الشام باستعادة هذا الإقليم، فبعث حبيب بن مسلمة الفهرى على رأس ستة آلاف جندى، فصالح أهل قليقلة على الجزية، ثم واصل زحفه، والتقى بجموع الروم قبل أن يأتيه مدد - كان قد بعث به الخليفة إليه - وتمكن من مباغتتهم والانتصار عليهم، ثم انضم إليه مدد الخليفة واستمر الجيشان فى زحفهما حتى استطاعا أن يعيدا ذلك الإقليم الكبير مرة أخرى إلى حظيرة الدولة الإسلامية.

كذلك استطاعت قوات أخرى أرسلها معاوية إلى الأناضول أن تبث الرعب فى قلوب الروم وتوغلت هذه القوات حتى وصلت إلى عمورية، وكان يبغى من وراء ذلك هدفا آخر هو شغل الروم بالدفاع عن تلك الأقاليم المتاخمة للعاصمة "القسطنطينية" فيسهل عليه حينئذ الاستيلاء على ما تبقى للروم من حصون وقلاع وجيوب على ساحل الشام، وقد نجح معاوية فى ذلك وأمكن لقواته أن تطهر الشام تماما من بقايا الوجود الرومى فى ثغرى قنسرين وطرابلس وهما آخر ما كان بيد الروم حتى ذلك الوقت.

فى الجبهة الغربية:

استطاعت حملة بحرية رومية - بالتعاون مع الروم المقيمين بالإسكندرية - أن تستولى على المدينة، فاستنجد المسلمون فى مصر بالخليفة أن يقر عمرو بن العاص على مصر - وكان قد عزله عنها - حتى يمكن استرجاع الإسكندرية من أيدى الروم فإن له خبرة بقتالهم وهيبة فى نفوسهم، فاستجاب عثمان، واستطاع عمرو أن يستعيد هذه المدينة العريقة إلى مصر الإسلامية وذلك سنة خمس وعشرين من الهجرة.

أما إفريقية فقد كان عمر بن الخطاب يرفض أن يستجيب لطلب عمرو بن العاص بفتحها، فلما تولى عبد الله بن سعد بن أبى السرح إمارة مصر، أخذ يرغب الخليفة فى غزوها، فاستجاب الخليفة وأمد عبد الله بمدد كبير من أهل المدينة فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير.

وقاد أمير مصر جنده واتجه غربا حتى وصل إلى عاصمة إفريقية "قرطاجنة" وكانت إفريقية ولاية رومية غير أن أميرها "غريغوار" أو "جرجير" انشق على الإمبراطور وأعلن

نفسه ملكا عليها، ولقد أحس بالخطر المحتمل القادم من الشرق فأعد العدة لملاقاته وجهز جيشا كبيرا للدفاع عن مملكته وحمايتها من المسلمين.

وفى عام سبعة وعشرين من الهجرة دارت بين الفريقين معارك طاحنة وطويلة كان النصر فى نهايتها حليف المسلمين الذين غنموا من أعدائهم غنائم عظيمة بلغ سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار، وسهم الراجل ألف دينار، كما تمكن أحد جنود المسلمين من قتل جرجير وآخر من أسر ابنته.

ويذكر المؤرخون أن رؤساء أهل إفريقية قد صالحوا عبد الله بن سعد على مال يعطونه إياه ورجع الجيش إلى مصر دون أن يولى المسلمون عليهم أحدا.

وكان لابن أبى السرح هذا جولة أخرى فى جنوب مصر فى بلاد النوبة عام واحد وثلاثين، وقد تمخضت معارك هذه الغزوة عن عقد صلح يتضمن هدنة بين الفريقين، وتبادل التجارة بينهما.

نشأة الأسطول الإسلامى:

لم يعرف العرب فى جاهليتهم، ولا فى عصر النبوة وخلافتى أبى بكر وعمر الحروب البحرية، وكانت نقطة الضعف فى فتوحات الشام ومصر هى الثغور الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط فى القطرين، ذلك أن الروم كانوا حتى ذلك الوقت سادة هذا البحر وملوك الحروب فيه، ولم تستطع أمة أخرى منافستهم فى هذا الميدان، فكانت أساطيلهم تفسد على المسلمين خططهم فى الاستيلاء على المدن الساحلية الشامية، وكذلك فى الإسكندرية وما يليها غربا، ولقد تمكن هذا الأسطول بقيادة عمانويل من الانقضاض على الإسكندرية وانتزاعها من أيدى حاميتها الإسلامية سنة خمس وعشرين من الهجرة فاستعادها عمرو بن العاص فى السنة عينها.

وكان معاوية بن أبى سفيان – والى الشام – يدرك هذا الضعف ويعلم أنه لا يمكن التغلب عليه إلا بأن يخوض المسلمون غمار الحرب البحرية ويواجهوا أسطول الروم بأسطول العرب، ولن يتم فتح بقية الثغور الشامية "قنسرين وطرابلس وأنطاكية وغيرها" إلا إذا استطاع المسلمون منع السفن الرومية من الوصول بالإمدادات المختلفة إلى تلك البلاد التى تواصل صمودها فى وجه الزحف الإسلامى عنها.

لذلك فقد عرض على الخليفة عمر أن يقوم – بالتعاون مع ولاية مصر – بإنشاء أسطول

إسلامى وتكوين قوة بحرية تكون مهمتها حماية الشواطئ الإسلامية فى الشام ومصر من عدوان القوات البحرية الرومية عليها، ولقد كانت الظروف مهيأة للبدء فورا فى بناء هذه القوة، فموارد الشام من الخشب الصالح لبناء السفن وافرة والصناع المهرة متوافرون فى مصر والشام، غير أن عمر تخوف على جنده من ركوب البحر ووجده خطرا محققا على العرب الذين لا علم لهم به، ولا دراية بشئونه، فكيف يحاربون فيه؟!

ورفض عمر رضى الله عنه فكرة معاوية فى إنشاء أسطول إسلامى.

فلما كانت خلافة عثمان استطاع معاوية أن يقنع الخليفة بفكرته وأن يحصل على موافقته بإنشاء أول قوة بحرية إسلامية، ولكنه اشترط عليه ألا يكره جنديا على ركوب البحر، وعلى الفور جند معاوية كل أصحاب الخبرة فى هذا الميدان من أهل الشام وبدأت دور الصناعة فى بناء السفن وكانت على مثال سفن الروم كبيرة وصغيرة، فالأولى يمكنها أن تحمل ألف رجل بأسلحتهم، والثانية لا تتجاوز حمولتها مائة جندى، وانتفع المسلمون طبعا بما تهيأ لهم من خبرة الروم فى هذا المجال.

ووفر معاوية لأسطوله الرجال المحاربين وما يلزمهم من عتاد ومؤن، ولكن المشكلة التى واجهته كانت فى توفير العناصر المدربة على قيادة السفن والقيام بالمناورات بها فى عرض البحر، ولذلك استعان بمن أقاموا فى الشام من الإغريق الذين لهم خبرة عريقة بالبحر الأبيض المتوسط، كما استعان بعرب اليمن الذين اشتهروا منذ عهد قديم بالتجارة البحرية وارتياد المحيط الهندى والبحر الأحمر، ولهذا أسندت قيادة أول قوة بحرية إسلامية إلى عبد الله بن قيس اليمنى، وبدأت القوة عملها بقطع السبيل على سفن الروم التى طالما حملت المؤن والعتاد إلى الجيوب الرومية على ساحل الشام، فمنعتها من القيام بهذه المهمة، فسهل على المسلمين إزالة هذه الجيوب وإتمام فتح الشام جميعا.

وحذت مصر حذو الشام وأنشأ واليها عبد الله بن أبى السرح أسطولا لحماية السواحل المصرية من عدوان الروم عليها، وهكذا بدأ التنافس فى البحر المتوسط بين المسلمين والروم.

غزوة جزيرتى قبرص ورودس:

وكانت جزيرة قبرص محطة لإمداد وتموين الأسطول البيزنطى ومصدر تهديد لساحل الشام وذلك لقربها الشديد منه، حتى لقد قيل - مبالغة -: إن المسلمين فى أرض الشام يسمعون صياح الديكة فى قبرص، لذلك تطلع معاوية إلى القضاء على هذا الخطر وغزو هذه

الجزيرة، فجرد إليها حملة فى عام ثمانية وعشرين من الهجرة نجحت فى مهمتها، وصالح المسلمون القبارصة على أن يدفعوا جزية سنوية مقدارها ٧٢٠٠ دينار وألا يلزم المسلمون بحماية أهل الجزيرة لأنهم لن يقطعوا صلتهم بالروم، لذلك فإنهم سيقفون محايدين بين الفريقين، غير أنهم لم يلتزموا طويلا بالاتفاق فاضطر معاوية أن يخرج بنفسه على رأس قوة بحرية فتحت الجزيرة مرة أخرى وأخضعتها تماما لسلطان المسلمين وأسكنها بضعة عشر ألفا من المسلمين وشيدت بها المساجد والربط، ومن ذلك الوقت أصبحت قبرص قاعدة للأسطول الإسلامى إلى حين، وكان ذلك إيذانا بالتحول إلى جزيرة ردوس التى استسلمت للمسلمين أيضا.

معركة ذات الصوارى البحرية:

اضطر الروم – تحت وقع الضربات القاسية التى تلقوها من الجيوش الإسلامية – إلى الانسحاب من الشام ومصر، ولكنهم لم يفقدوا الأمل كله فى إمكان استعادة هذين الإقليمين العظيمين إلى دائرة نفوذهم، ولقد عول الإمبراطور الجديد قنسطانز هرقل على الأسطول الرومى العريق فى تحقيق هذا الأمل ورد اعتبار بيزنطة أمام العالم، وتنفيذا لما اعتزمه استمات الأسطول فى الدفاع عن الجيوب البيزنطية على ساحل الشام وقاموا بالهجوم على الإسكندرية فى العام الخامس والعشرين الهجرى واستولوا عليها لبضعة أشهر فقط.

فلما اقتحم المسلمون البحر الأبيض المتوسط الذى كان يسمى "بحر الروم" لسيادة أسطولهم عليه، وخاضوا معارك صغيرة ومتوسطة ضد عدوهم المتمرس العتيد وحققوا بالعزيمة والإصرار الانتصار عليه، أصيب الروم بالفزع الشديد لتعاظم قوة العرب البحرية بعد اكتساحهم البرى، وكأنما كان استيلاء معاوية على قبرص فى العام الثلاثين من الهجرى إنذارا أخيرا لهم بأن يسرعوا إلى مواجهة المسلمين فى البحر قبل فوات الوقت وضياع مجدهم البحرى العريق.

لذلك فقد وضع الإمبراطور قنسطانز خطة لضرب الأسطول الإسلامى ضربة لا يقوم بعدها، وحشد لهذا الغرض خمسمائة سفينة حربية وشحنها بعشرات الألوف من الرجال المزودين بالأسلحة المختلفة، غير أن أميرى مصر والشام قد علما بما بيته الإمبراطور فأعد قوتين، شامية ومصرية، تجمعتا تحت قيادة عبد الله بن أبى السرح فى منطقة خليج فينكس فى جنوب آسيا الصغرى وقد بلغت سفن الأسطول الإسلامى حوالى المائتين، وسبق

القول إن الأسطول البيزنطى يتكون من خمسمائة سفينة لذلك عندما التقى الفريقان فى منطقة المعركة بهذا العدد الهائل من السفن بسارياتها العالية سميت هذه الموقعة الشهيرة بذات الصوارى.

واستطاع المسلمون أن يحولوا سير المعركة إلى جانبهم فتحولت من حرب بحرية إلى حرب برية، وذلك عندما اقتربوا بسفنهم من سفن العدو والتحموا بهم على ظهور السفن، ودارت رحى معركة ضارية بين الفريقين كأنهما يتصارعان فوق الأرض مستخدمين السيوف وقطع الحديد والأحجار، ولاشك فى أن المسلمين يتقنون هذا النوع من الحرب ويتفوقون فيه على عدوهم، ولذلك كان النصر فى نهاية الأمر حليف المسلمين على الرغم من الفارق البين بين القوتين بالنسبة لعدد السفن.

ومن الجدير بالذكر فى هذه الموقعة التى كانت فى العام الرابع والثلاثين الهجرى أن قائد المسلمين كاد يقع فى الأسر عندما جذب العدو سفينة القيادة بسلسلة حديدية متينة لولا أن اندفع أحد المسلمين وألقى بنفسه فوق هذه السلسلة حتى خلص السفينة منها، أما الإمبراطور الذى تولى بنفسه قيادة أسطوله فقد كان نصيبه جرحا منعه من مواصلة القتال ففر مع بعض سفنه إلى جزيرة صقلية - وكانت تابعة له - فلم ينعم بالبقاء فيها طويلا إذ حزن الروم هناك لهزيمة أسطولهم وخيبة أملهم فى إمبراطورهم فقتلوه فى الحمام.

وعلى الرغم من كثرة شهداء الإسلام فى ذات الصوارى فإن النصر المبين الذى منحه الله البحرية الإسلامية فيها كان البداية الحقيقية لمغيب نجم التفوق البيزنطى فى البحر الأبيض المتوسط كما أنه كان انطلاقا جديدا للأسطول الإسلامى، وتأكيدا لدوره الخطير فى دعم وحماية السواحل والثغور الإسلامية فى شرق وجنوب البحر المتوسط، وأخيرا أصبحت القوات البحرية الإسلامية حرة الحركة إلى حد كبير فى التجول فى أنحاء هذا البحر، ومن هنا كان تفكير القيادة الإسلامية فى فتح جزيرة رودس التى ما لبث أن سقطت فى يد المسلمين.

على أن الظاهرة الهامة التى يجب التنبيه إليها فى هذه المناسبة هى أن التعاون الوثيق بين مصر والشام هو الذى حقق للمسلمين هذا المجد البحرى.

كما بدأ الاحتكاك الأول بين المسلمين وبين الترك فى عهد عثمان بن عفان بعد أن فرغ المسلمون من فتح فارس سنة ٦٥١م/ ٣١هـ.

ففى هذه السنة توطد النفوذ الإسلامى فى منطقة خرسان، وورث المسلمون الفاتحون

من مخلفات الساسانيين هذا الخطر التركى أو التعدى التركى، واضطر المسلمون فى المرحلة الأولى أن يلتزموا سياسة الدفاع والذى كاد يكون مركزا فى منطقة خراسان التى نظمت تنظيما ثغريا، إذ أصبحت ثغر المسلمين، وظلت تخضع لهذا التنظيم الثغرى أكثر من خمسين سنة، من سنة ٦٥١م/ ٣١هـ إلى سنة ٧٠٥م/ ٨٦هـ.

وبعد هذا الاستعراض لأسباب الفتوحات فى الجناح الشرقى للدولة الإسلامية نجدها جميعا دون تخطيط مسبق من جانب المسلمين طمعا فى أى مكاسب سوى رد عدوان وقع من العدو أو رد عدوان متوقع، هدفهم فى هذه الحروب جميعها حماية الإسلام ودولتهم الناشئة فشاءت الأقدار لهم الانتصار والتوسع وشاء الله لتلك البلاد المفتوحة أن يدخلها نور الإسلام .. وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية فى الجناح الشرقى سلسلة من القتال اضطر إليها المسلمون اضطرارا، وأنها لم تتوقف إلا حينما توقف العدو عن العدوان.

مصحف عثمان:

عقب موقعة اليمامة التى استشهد فيها جمع عظيم من القراء الحفاظ للقرآن حيث خشى عمر أن يذهب كثير من القرآن بموت آخرين من الحفاظ فأشار على أبى بكر بجمع القرآن فاستجاب أبو بكر لهذا الخير، وأمر زيد بن ثابت بجمعه، فقام بذلك العمل الجليل خير قيام، واحتفظ الخليفة بالمصحف عنده، ثم من بعده انتقل إلى عمر، فلما توفى حفظ لدى حفصة بنت عمر أم المؤمنين، ويسمى هذا الجمع الأول، وقد عرفنا الباعث عليه فماذا كان الباعث على الجمع الثانى الذى تم بأمر من عثمان وفى خلافته؟ وللإجابة عن هذا السؤال ينبغى العودة إلى الوراء قليلا حين كان حذيفة بن اليمان يجتمع فى مسجد الكوفة بعبد الله بن مسعود صاحب المصحف الذى يتبعه أهل الكوفة، وأبى موسى الأشعرى صاحب المصحف الذى يتبعه أهل البصرة، ويصرح حذيفة لكل منهما بأنه يجب توحيد المصاحف مخافة اختلاف الناس على تلاوة الكتاب العزيز، فكان بن مسعود يعارضه فى ذلك معارضة شديدة، أنه مصمم على دعوة الخليفة إلى توحيد المصاحف.

كذلك فقد برزت – فى مسجد المدينة – ظاهرة اختلاف الناس فى القراءة بصفة عامة، وتبادل بعضهم – بسبب هذا الاختلاف – الاتهام بالكفر، مما أثار مخاوف عثمان، وجعله يدعو الصحابة إلى أن يجتمعوا فيكتبوا للناس مصحفا واحدا يسمى المصحف الإمام.

ولئن كان اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن يحرك مشاعر حذيفة ويثير غضبه وغضب

الخليفة وخوفهما فى وقت السلم، إن اختلافهم فى وقت الحرب ولدى مواجهة الأعداء فى ميدان القتال حيث هم فى مسيس الحاجة إلى وحدة الكلمة واتفاق الرأى، إن ذلك لهو أدعى لأشد الخوف والفزع وضرورة التحرك والعمل على إزالة هذا الاختلاف مهما يكن الأمر حفظا للقرآن الكريم ومحافظة عليه تحقيقا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.[سورة الحجر: آية ٩]

وحقق حذيفة ما اعتزمه، فقد فتح أرمينية وأذربيجان فى العام الثلاثين الهجرى، وشهد فى أثنائها الجند العراقيين – جند الكوفة – يتعصبون فى تلاوة القرآن لمصحف عبد الله بن مسعود، وتعصب جند الشام لمصحف أبى بن كعب، وأوشك اختلافهم هذا أن يتحول إلى اقتتال، فشد حذيفة رحاله قاصدا المدينة لينقل للخليفة عثمان ما رأى وسمع فى ميدان الجهاد، ولحذره مما يمكن أن يصير إليه الأمر لو لم يتدارك الآن، فلقيه وهو يقول: أنا النذير العريان، فأدركوا هذه الأمة.

واقتنع الخليفة وأرسل إلى أم المؤمنين حفصة أن تبعث إليه بمصحف أبى بكر، ثم أمر كاتب الوحى زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وآخرين من القراء الحفاظ أن يكتبوا عدة نسخ من مصحف أبى بكر فإن اختلفوا فى لفظة فلتكتب بلغة قريش الذين أنزل الله القرآن بلسانهم، فقاموا بذلك العمل الجليل على الوجه الأكمل.

وقد اختلفت الروايات فى عدد النسخ التى كتبها أولئك الكتاب الحفاظ لكنها تتفق على أربع أرسلت ثلاث منها إلى الشام، والكوفة، والبصرة، أما الرابعة فبقيت بالمدينة، وأمر الخليفة بأن يلتزم الناس بهذا المصحف لأنه المصحف الإمام.

وبهذا العمل الجليل زال شبح الخوف الخطير على كتاب الله الذى هو رمز اجتماع كلمة المسلمين ووحدتهم ومصدر حياتهم وقوتهم وهدايتهم، وقد قال عليه السلام: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنتى" وتتجدد ذكرى عثمان العطرة كلما أمسك بالمصحف منذ ذلك اليوم وإلى أن تقوم الساعة، وأطالع فى أوله أو فى آخره "كتب هذا المصحف الشريف أو طبع حسب الرسم العثمانى" أى على صورة رسم المصحف العثمانى.

وقد قام عثمان أثناء خلافته بخدمات جليلة للإسلام والمسلمين أهمها: عمارة المسجد الحرام وتوسيع المسجد النبوى، فى سنة ٢٦هـ زاد عثمان فى المسجد الحرام ووسعه، وفى

سنة ٢٩ وسع المسجد النبوى وقد بناه بالحجارة، وجعل عمده من حجارة فيها رصاص، وجعل سقفه من الصاج وجعل طوله ستين ومائة ذراع وعرضه خمسين ومائه ذراع، وجعل أبوابه ستة كما كانت فى عهد عمر.

ومن مآثره، ترتيب الطعام فى شهر رمضان لأهل المدينة وإقامته دور الضيافات فى الكوفة وغيرها.

ومن مآثره أيضا اتخاذه دارا للقضاء، فإننا نعرف أن عمر بن الخطاب عين قضاة فى مختلف الجهات ورتب لهم الأرزاق، ولكنا لا نعرف أنه اتخذ دارا للقضاء، بل كان القضاء فى المساجد أو حيث يوجد القاضى.

الفتنة الكبرى:

فى أواسط خلافة الخليفة الثالث، تغيرت العناصر التى كانت تكون المجتمع الإسلامى، وأخذ جيل ينقرض أو يختفى من على ظهر المسرح بالتدريج، ويحل محله جيل آخر أقل من الأول - ذلك الذى على أكتافه قام بناء الدولة - فى مجموعه من حيث قوة الإيمان وفهم جوهر العقيدة، والاستعداد لإخضاع النفس لحكم القانون العام، وكانت البيئة قد تغيرت، وزخرت بحال الرفه، وتبدلت الأحوال والظروف، وبعثت العصبية وحميات الجاهلية والمطامع الفردية من مكامنها وكان ذلك كله نتيجة للفتوحات.

فحصل صدام كان لابد أن يقع، وظهرت العقبات، وأطلت المشاكل برأسها، وتوالت الأزمات.

الحالة فى الكوفة:

استعمل عثمان فى صدر خلافته، سعد بن أبى وقاص على الكوفة - كان الوالى قبل ذلك المغيرة بن شعبة الثقفى - تحقيقا لوصية عمر فى حديث الشورى، إذ قال: "وإن تولوا سعدا فأهلها هو، وإلا فليستعن به الوالى" وجعل على خراجها عبد الله بن مسعود، ولكن سعدا لم يقم فى الكوفة إلا عاما وبعض عام حتى اضطر عثمان إلى عزله.

وقد ذكر المؤرخون سبب العزل، وهو أن سعدا اقترض من الخراج مالا إلى أجل، فلما حل الأجل طالبه به ابن مسعود، ولم يتيسر هذا المال لسعد فطلب النظرة إلى ميسرة، وأبى ابن مسعود، فاستعان كل من الرجلين على صاحبه بجماعة من أهل الكوفة، يريد

ابن مسعود أن يستعين بأصحابه على سعد ليؤدى دينه، ويريد سعد أن يستعين بأصحابه على ابن مسعود لينظره إلى ميسرة، فوقع بين الرجلين نزاع أدى إلى فرقة، وتنازع بين المسلمين، فتعصب لسعد قوم، وتعصب لابن مسعود قوم آخرون.

بلغ ذلك الخليفة فخشى امتداد الفتنة، فعزل سعدا، وأخذ منه ما كان عليه، وترك ابن مسعود على بيت المال، وكان ذلك سنة ٢٥هـ.

والدكتور طه حسين لا يقبل هذا السبب، ويدافع عن سعد، ويذكر مواقفه كلها، وسبب الحملة عليه، ويستبعد ما حدث بينه وبين ابن مسعود، ثم يقول: وأكاد أعتقد أن وجه الحق فى عزل سعد، هو أن بنى أمية وآل أبى معيط، كانوا يتعجلون الولاية، ويلحون على عثمان فى أن يمهد لهم الطريق إليها، ثم عزل سعدا ليجعل مكانه رجلا من آل أبى معيط.

فعزل سعد عن الكوفة، وأرسل الخليفة إليها واليا جديدا هو الوليد بن عقبة، فاتجه فى سياسته إلى إرضاء الطبقات الفقيرة، ولم يتخذ بابا ولا حجابا – كما يفعل الخلفاء وبقية الأمراء عادة – وإذا كان الوليد قد كسب رضا العامة فإنه لم يستطع كسب ذوى المطامع، وكبار القوم الذين لا يحرك نفوسهم إلا الجاه والسلطان، وهؤلاء نجدهم من أول يوم له فى الكوفة يشنعون عليه فيذهب عمرو النخعى (من سادات النخع) ليخطب فى المسجد قائلا: بئسما استقبلنا به أخوكم ابن عفان، أمن العدل أن ينزع عنا سعدا الهين اللين، ويستعمل علينا الوليد الأحمق الفاجر الماجن: أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد، ولقد كان هذا الوليد أميرا لعمر بن الخطاب ولم يعرف بفجور ولا مجون.

وقد ساس أهل الكوفة سياسة حزم، وعزم، فأقر الأمن، وضرب على أيدى المفسدين من الأحداث، والذين لا يرعون للنظام حرمة، ولا للدين وقارا فقد حدث أن شبانا من أبناء الكوفة نقبوا على رجل منها داره، وقتلوه فحوكموا، وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا بأمر الخليفة فحقد آباؤهم على الوليد، وصاروا يتلمسون الأخطاء له، ويضعون الخطط للإيقاع به، وكان سمار يسمرون عنده، ومنهم أبو زبيد الطائى الشاعر – أبو زبيد نصرانى، أسلم على يد الوليد – وكان معروفا بشرب الخمر، فأتى آت للحاقدين، وقال لهم: هل لكم فى الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر؟ فأذاعوا ذلك بين الناس، وأكثروا فى إشاعة شربه الخمر مع أبى زبيد، حتى أثاروا عليه أعيان الكوفة من المهاجرين.

ولم يكتفوا بذلك بل ذهبوا إلى دار الخلافة، وشكوه، وشهدوا عليه بشرب الخمر،

فاستدعى الخليفة الوليد لمحاكمته، فأقسم الوليد أنه برىء، وأن هؤلاء الشهود هم خصومه، الذين وترهم، فقال عثمان: نعمل بالذى ينتهى إلينا، نحن نقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور بالنار، فاصبر أخى، فحُدَّ حد شارب الخمر ثم أجاب القوم إلى ما طلبوا بعزله عن الولاية[1]، وكان ذلك سنة ٣٠ هـ.

ومن ذلك نرى أن موقف الخليفة سليم لأنه أخذ المسألة من وجهها الشرعى وهو شهادة الشهود، ولم يقبل من الوليد طعنا فيهم بأنهم موتورون منه لقتله أبنائهم ولعل عثمان ظن من حسن السياسة أن يتحامل على الوليد إرضاء لشعب ثائر، ولكن هيهات، فإن طلاب الفتنة، إنما يقمعهم البطش ويغريهم اللين.

عزل الوليد، وولى مكانه سعيد بن العاص، فسار إليها ومعه جماعة، منهم الذين عملوا على عزل الوليد فلما دخل الكوفة صعد منبر مسجدها الجامع فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: لقد بعثت إليكم وإنى لكاره ولكنى لم أجد بدا إذا أمرت أن آتمر، ألا وإن الفتنة قد أطلعت خطمها (مقدم الأنف والفم) وعينيها، والله لأضربن وجهها حتى أقمعها (أزيلها) أو تعيينى، وإنى لرائد نفسى اليوم، ثم نزل.

وأخذ فى تعرف أحوال الناس حتى وقف منها على سوء كثير، وبعث تقريرا دقيقا للخليفة، ومما جاء فيه: إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات، والسابقة والمقدمة، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت، وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف وبلاء من نازلتها ونابتتها، فكتب إليه الخليفة بتفضيل أهل السابقة والقدمة وأن يكون غيرهم تبعا لهم إلا أن يتثاقل الأولون عن الحق، ويقوم به الآخرون، وبأن يحفظ لكل منهم منزلته وحقه فأرسل سعيد إلى وجوه أهل الكوفة من أهل السابقة والأيام المجيدة، وطلب إليهم أن يرفعوا إليه حاجات الناس لأنهم أعيانهم، وجعل حاشيته وخاصته، من هؤلاء ومن القراء وذوى الشرف، فراحت الكوفة، وكأنما هى يبس شملته نار، لأن الذين أوقعوا بالوليد وكانوا سبب ولاية سعيد، كانوا ينتظرون منه أن يعرف من هم؟ وأن يؤثرهم ويقدمهم، فخاب ظنهم فعادوا سيرتهم الأولى، وانقلبوا على سعيد أشد من انقلابهم على سلفه الوليد، فملأوا الأرض إذاعة ضده، وفشت القالة فى عثمان وولاته، فصبر عليهم سعيد، حتى لامه فى أمرهم بعض ذوى البصيرة والعقل، من أهل الكوفة، فكتب وكتب الأشراف إلى الخليفة يرجونه نفى هؤلاء عن الكوفة، فأمر بإخراجهم إلى الشام، ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبى سفيان.

---

(١) الطبرى ج٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٩، وعرجون ص ١٠٨ - ١١٦، والفتنة الكبرى ج١ ص ٩٥ - ١٠٠.

ولكن معاوية وجد الشر متمكنا فى نفوسهم فعجز عن تأديبهم، وخافهم على رعيته، وطلب إلى الخليفة إنزالهم عند عبد الرحمن بن خالد بن الوليد أمير حمص، فلما نزلوا عليه قال لهم: أنا ابن خالد بن الوليد فاقئ عين الردة، إن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر، فنكل بهم نكالا شديدا، وصار يسومهم الخسف فإذا ركب أمشاهم فى ركابه يؤنبهم ويزجرهم كل وقت، فلما شق عليهم ذلك أظهروا الطاعة وأعلنوا التوبة واستقالوه من عثرتهم، فأقالهم وأرسل الأشتر (وهو واحد منهم) بتوبتهم وطاعتهم إلى عثمان فقبل توبتهم، وجاء الأمر من عثمان بإعادتهم إلى الكوفة، ولكنهم اختاروا البقاء فى الجزيرة، ولكن هذه الإقامة لم تطل، فإنه لما قدم سعيد على الخليفة ليطلعه على حقيقة الحال فى أهل الكوفة "انتهز أصحاب المنفيين أو المسيرين هذه الفرصة، وأجمعوا أمرهم على أن يحولوا بين سعيد وبين الرجوع إليهم وكتبوا إلى أصحابهم يستقدمونهم، فأقبلوا مسرعين حتى دخلوا الكوفة، وأقسموا ألا يدخلها سعيد ما حملوا سيوفهم، واجتمع رأيهم جميعا على المسير إلى عثمان يستعفونه من ولاية ابن العاص عليهم".

وبينما هم سائرون إلى المدينة لقيهم سعيد وهو راجع إلى عمله، فأخبروه خبرهم، وردوه وقتلوا غلامه، وقد قال لهم سعيد: كان يكفيكم أن ترسلوا إلى عثمان رجلا، وإلى رجلا: ثم رجع إلى عثمان وأخبره أنهم يريدون البدل بى، ويحبون أبا موسى الأشعرى، وكان ذلك سنة ٣٤هـ.

فكان كل عمل دار الخلافة فى سبيل الاحتفاظ بهيئة الحكومة المركزية وأمراء الأقاليم، أن صدر أمر الخليفة بعزل سعيد وإقرار إمرة الأشعرى كما أراد الموتورون، وكان من الواجب أن تجرد دار الخلافة على الكوفة حملة تأديبية كالتى أراد عمر أن يوجهها قبل مصرعه، وقد جاء فى كتاب الخليفة ما أغرى المفسدين بالخلافة كقوله: "قد أمرت عليكم من اخترتم، والله لأقرضنكم عنى، ولأبذلن عنى، ولأبذلن لكم صبرى، فلا تدعوا شيئا أحببتموه إلا سألتموه، ولا شيئا كرهتموه إلا استعفيتم منه، أنزل فيه عندما أحببتم: وبذلك انحط مركز الخلافة وعمالها عندهم.

الحال فى البصرة:

لم تكن الأمور فى البصرة بأحسن منها فى الكوفة ففى سنة ٢٩ هاج أهلها على أبى موسى الأشعرى واليها واستعفوا منه الخليفة فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر،

وكان ذا حزم وعزم وقوة وبأس شغل نفسه وشغل الناس معه بالفتح فسكنت الثورات فى بلاد فارس وكرمان وسجستان وخراسان وجعل شكره لله على ذلك الفتح العظيم، الإحرام من مكانه بعمرة أو حج إلى بيت الله الحرام.

وقد سار فى الناس سيرة جد وكرم ومضاء فلم يلق من أهل البصرة مما لقى سعيد والوليد من أهل الكوفة وكانت إمارة ابن عامر تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين وظهر فى البحرين لص خطير يدعى "حكيم بن جبلة" ولاقى الناس منه الشدائد: فشكا أهل الذمة وشكا المسلمون إلى الخليفة ما لاقوه من شر وفتك على يد اللص حكيم، فكتب إلى ابن عامر بحبسه وحبس كل من كان مثله، فحبسه بالبصرة فكان لا يستطيع مجاوزتها، فقدم عليه رجل يسمى عبد الله بن سبأ ويسميه مؤرخو العرب "بابن السوداء" ونزل عنده، واجتمع إليه جماعة، فأشار لهم ابن السوداء ورمز بأشياء، ولم يصرح فقبلوا منه فشعر ابن عامر بدسائسه ودعايته فطرده، فخرج إلى الكوفة واكتفى ابن عامر بذلك - وكان ينبغى أن يلقى به السجن حتى تنعدم آثار مقالته أو يهلك ولكنه تركه حرا فجال فى البلاد وأكثر فيها الفساد.

وقد روت بعض المصادر أنه فى عهد ابن عامر سعى ساع إليه بأن عامر بن عبد القيس يخالف المسلمين فى أمور أحلها الله لهم، فكتب ابن عامر لعثمان، فأمر الخليفة بإرساله إلى معاوية وتبين لمعاوية أن الرجل مكذوب عليه وأنه ناسك متعبد.

الشام:

كان معاوية أعظم الولاة حظا من كل شىء أيام عثمان، فقد طال عهده بالشام، فعرفه أثناء خلافة عمر كلها، فأحب أهل الشام وأحبوه فقد ساسهم سياسة رشيدة وكانت على حد قوله: لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ففتح بهم الفتوح السابقة، وغزا فى البحر غزوات موفقة ولهذا سلمت الشام من ذوى الأهواء والمفسدين، اللهم إلا حادثة واحدة جاءت على إثر نزول ابن سبأ بالشام، فيروى لنا المؤرخون: أن ابن السوداء أتى الصحابى الزاهد أبا ذر الغفارى، وقال له: يا أبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول: المال مال الله، ألا إن كل شىء لله كأنه يريد أن يحتجنه (يمنعه) دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين، فجاء أبو ذر إلى معاوية، وقال له: ما يدعوك أن تسمى مال المسلمين مال الله؟ قال معاوية يرحمك الله يا أبا ذر: ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟ قال أبو ذر: فلا

تقله، قال معاوية: فإني لا أقول، إنه ليس لله: وسكن سأقول: إنه مال المسلمين، وأتى ابن السوداء: أبا الدرداء فقال له من أنت؟ أظنك والله يهوديا، وأتى الصحابى الجليل عبادة ابن الصامت، فتعلق به حتى أوقفه على معاوية، وقال: هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر، فأمر معاوية بطرده من الشام، وكان على معاوية ألا يدعه يفلت هكذا بسهولة ليقع الناس فى شباكه، لم يكتب أبوذر رضى الله عنه بما كان من معاوية، وما أبداه له من لين، فقد قام بالشام، وجعل يقول: يا معشر الأغنياء وأسوأ الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم وما زال يقول ذلك حتى ولع الفقراء بمقالته وأغرموا بها فأوجبوا على الأغنياء مواساتهم، وأساءوا إليهم وشكا الأغنياء ما يتعرضون إليه من الناس، فكتب معاوية إلى الخليفة يأمر أبى ذر فجاء الرد بتجهيزه وإرساله إلى المدينة مكرما، لما وصل المدينة ووجد مجالس الناس قد وصلت جبل سلع قال: بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار، ولما دخل على عثمان قال له: يا أبا ذر ما لأهل الشام يشكون ذرب لسانك (شدته وجرأته) فأخبره أنه لا ينبغى أن يقال مال الله، حتى لا يكون ذريعة لاختصاص الحكام به ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا فقال عثمان: يا أبا ذر على أن أقضى ما على وآخذ ما على الناس ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد، فقال أبو ذر: أفتأذن لى بالخروج، فإن المدينة ليست لى بدار؟ فقال عثمان: أو تستبدل إلا شرا منها؟ قال: أمرنى رسول الله أن أخرج إذا بلغ البناء سلعا، قال: فانفذ ما أمرك به الرسول، فخرج أبو ذر ومعه رافع بن خديج إلى الربذة (إحدى ضواحى المدينة) وقد رتب الخليفة لهما رزقا وما زال أبو ذر فى مكانه هذا حتى مات سنة ٣٢هـ.

هذه رواية، وفى رواية أخرى: أن أبا ذر لما لم يعدل عن هذا الرأى الذى رأى عثمان فيه خطورة أمره ألا يغشى مجالس الناس أو يخرج إلى الربذة.

ونحن نرجح الرواية الأولى لثقة الرواة من ناحية ولمعرفتنا بمواقف عثمان من الناس ولاسيما الصحابة، ولإيماننا بأنه لولا ما أخبر به أبوذر من وصية الرسول لما تركه عثمان يغادر المدينة ويزيدنا ثقة بهذا الرأى أن عثمان أرسل إليه يقول: تعاهد المدينة حتى لا ترتد أعرابيا.

وأيا ما كان فقد استغل أهل الفساد هذه الحادثة ضد الخليفة وكانت إحدى المطاعن التى

وجهت لعثمان، وصورت فى أبشع صورة حتى خلقت منها مأساة استفاضت فيها الأخبار بما يشبه الخيال القصصى تشنيعا على عثمان وتقبيحا لسياسته والله يعلم الحق،

أبوذر:

وقبل ترك هذا الموضوع يجب علينا أن نجيب عن هذه الأسئلة الآتية:
هل كان أبوذر متأثرا بابن سبأ أو غيره؟

والإجابة عن هذه الأسئلة:

١- إن أبا ذر لم يكن بحاجة إلى طارئ محدث فى الإسلام ليعلمه هذه الحقائق الأولية فى الإسلام التى لا تخفى على رجل من الرعيل الأول فى الإسلام وقد صحب النبى صحبة طويلة، وحفظ القرآن فأحسن حفظه، وروى السنة فأتقن روايتها، وكان عابدا زاهدا، فأى شيء يمنعه بعد ذلك كله أن يكون رأيا كهذا من تلقاء نفسه؟ وأمامنا استشهاده بالآيات واستدلاله بروح الإسلام، وكم اجتهد الصحابة؟ وكم وصلوا إلى آراء صارت مصدرا من مصادر التشريع الإسلامى دون أن يوجد مؤثر خارجى؟ وكان اعتمادهم على الكتاب والسنة وحدهما.

فالذين يزعمون أن ابن سبأ قد اتصل بأبى ذر وألقى عليه بعض مقاله يظلمون أنفسهم، ويظلمون أبا ذر ويرقون بابن السوداء إلى مكانة ما كان يطمح أن يرقى إليها.

وأبعد مما قيل من التأثر بابن سبأ ما رآه أحمد أمين فى كتابه فجر الإسلام ص ١٢٦ ، ١٢٧، من أن أبا ذر اقتبس هذه الأفكار من الفرس الذين يتبعون رأى مزدك، وليس هناك دليل على أنه كانت توجد صلة بينه وبين الفرس أو أنه كان يعرف لغتهم، وربما لم يكن سمع بمزدك، وإذن فأبوذر لم يتأثر بمؤثر خارجى، وإنما دفعه إلى ما قال عاطفة الرحمة بالفقراء وفهم فى آية من كتاب الله فهما كان فيه صادق العقيدة، قوى الإيمان، يصدر فى دعوته عن يقين وإخلاص.

وقد أتعب أبوذر نفسه، وغيره فى طلب أمر بعيد عن الطبائع البشرية، فقد كان المسلمون يخرجون زكاة أموالهم، وما كان أحد منهم يمنعها وكانوا يتصدقون كثيرا، ويبنون المساجد وهذا العمل فوق المفروض جبرا وبلا حساب فمطلبه عسير، نعم إذا تبلد الأغنياء، وشحوا بأموالهم، ولم يخرجوا زكاتها فمن حق الحاكم أن يأخذ من أموالهم ما يرى فيه

صلاح الأمة - راجعوا فى موضوع أبى ذر، الفتنة الكبرى ج١ من ١٣٢ - ١٣٤، ومن ١٦٣ - ١٦٥. والنظريات السياسية الإسلامية ٤٣ ، ٤٤ ، وعثمان بن عفان من ٣٥ - ٣٩، ومعاوية فى الميزان للعقاد ١٤١، ١٤٢.

مصر:

عرفنا أن عمرو بن العاص عزل عن مصر ووليها عبد الله بن سعد وكان دون عمرو فى السياسة وضبط الأمور، فإن عبد الله بن سبأ، بعد أن طرد من الكوفة والشام وجاء إلى مصر فوجد فيها ملجأ أمينا، وتربة خصبة لزرعه الخبيث فاستقر بها واستغلها مركزا لدعايته، فكان مما قال لهم: إنه كان لله ألف نبى ولكل نبى وصى، وكان على وصى محمد ومحمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء، ومن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله، ووثب على وصيه ومنعه حقه وتناول أمر الأمة بغير الحق، ثم قال بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر وحركوه، وأظهروا الطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر تستميلوا الناس، وادعوهم إلى هذا الأمر.

ولم يقف عند حد الكلام، بل بث الدعاة، وكاتب من كان قد استفسدهم فى الأمصار، وكاتبوه ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وصاروا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها فى عيوب ولاتهم ويكاتبون إخوانهم بمثل ذلك وأخذوا يزورون الكتب، وكان أهل مصر قد أتقنوا فن الدعاية، ووجدوا فى تاريخ ابن أبى سرح القديم مادة دسمة لدعايتهم، وزادوا على ذلك بأنه متكبر على عرب مصر، ولم يشفع له عندهم ما قام به من فتح فى إفريقية وفى قبرص وهزيمة الأسطول الرومى فى موقعة ذات الصوارى، وقد حاول ابن سعد أن يشتد على أهل الدعاية، فتذمر المصريون منه، وأرسلوا جماعة إلى الخليفة يشكون فعله بهم، فكتب إليه عثمان ينذره ويأمره أن ينزع عما تكره الرعية، فلم يحفل بذلك، بل عاقب الذين شكوه، وضرب منهم رجلا حتى قتله، فباتت مصر أسوأ حالا من غيرها.

وقبل أن نسير إلى المدينة خاتمة المطاف فى هذه المرحلة يحسن بنا أن نلقى نظرة سريعة على ابن سبأ، فقد كثر الحديث عنه فمن هو؟ وإلى أى حد كان عمله فى الثورة؟

ابن سبأ:

يهودى من أهل اليمن، وأمه أمة سوداء، ولذا لقب بابن السوداء اعتنق الإسلام فى عهد

عثمان تظاهرا أو عن عقيدة، ورأينا طوافه بالأمصار الإسلامية، وبثه الأفكار التى ذكرناها، وهى وغيرها تشبه إلى حد كبير العقائد التى سيذهب إليها الشيعة فيما بعد.

ولكثرة ما قيل عنه شك بعض المؤلفين فى شخصيته، ولكن تعددت الروايات عنه وتواترت أنباء الثقات من المؤرخين تؤيد القول بوجوده، وقيامه بدور فى الفتنة، ولكن المؤرخين قد بالغوا فى هذا الدور، فكأنه هو الفتنة ويحملونه كل تبعتها، وقد رأينا تطور المجتمع الإسلامى والأحوال فى الأمصار قبل وجوده - راجعوا فى ابن سبأ النظريات السياسية ص ٤١ - ٤٣، والفتنة الكبرى ص ١٣١ - ١٤٣.

المدينة:

رأينا فيما سبق أن المصريين كانوا يكتبون إلى الأمصار كتبا يضعونها فى عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ونذكر هنا أنه كان يكتب أهل كل بلد إلى البلد الآخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك وهؤلاء فى بلدهم، حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة ودعاية، وكان يقول أهل كل بلد، إنا لفى عافية مما ابتلى به الناس إلا أهل المدينة فقد جاءتهم أخبار كل الأمصار والتقت عندهم كل سيئاتهم، وتألم أهل المدينة لما بلغهم من سوء الحال فى البلاد فجاءوا إلى عثمان وقالوا له: يا أمير المؤمنين يأتيك عن الناس مثل الذى يأتينا؟ فقال: لا، والله ما جاءنى إلا السلامة، فأخبروه بما جاءهم، وبينوا له أن الأقطار الإسلامية أصبحت مصدر قلق وخوف وأن نذر الفتنة قد ظهرت[1] فطلب الخليفة مشورتهم، فأشاروا عليه أن يبعث رجالا إلى الأمصار للتحقيق من الأخبار التى وصلت.

إرسال الرسل إلى الأمصار:

ورأى عثمان صواب تلك الفكرة: فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامه بن زيد إلى البصرة، وعبد الله بن عمر إلى الشام، وعمار بن ياسر إلى مصر، وفرق رجالا سواهم إلى غير تلك الجهات فرجع القوم كلهم وقالوا: ما علمنا عن أمرائك إلا خيرا: ما عدا عمار بن ياسر فقد استماله الحزب المؤلب على عثمان، فأقام بمصر، وكان هو ومحمد بن أبى

---

(١) مصادرنا فى موضوع الأمصار الإسلامية كلها عدا ما أثبت للمراجعة ابن الأثير ج٣ ص ٥٦، ٥٨، ٦٩، ٥٧، وأشهر مشاهير الإسلام ج٤ ص ٧٢٠، ٧٢٧، ٧٦٣، وتاريخ الخلفاء ص ٢٦١ - ٢٦٩، والنظريات السياسية ص ٣٩ - ٤٥، والفتنة الكبرى ص ٨٩ - ١٢٧، وتاريخ الإسلام السياسى ج١ ص ٣٤٧ - ٣٥٠، وعرجون ص ١٠٨ - ١٢٠، وص ١٤٤ - ١٤٨، والخضرى ج٢ ص ٤٩ - ٥٧، والفتح الإسلامى ص ٣٧٢ - ٣٧٧.

بكر ومحمد بن حذيفة من أكبر المؤلبين على عثمان والمدبرين ضده وما زالوا كذلك حتى بلغ الكتاب أجله[1].

مؤتمر العمال فى موسم الحج من سنة ٣٤هـ:

لما رأى عثمان كثيرة القيل والقال، لم يكتف بأخبار الرسل فأرسل إلى عماله بالأمصار يطلب منهم الحضور فى موسم الحج من عام ٣٤هـ، فقدموا عليه فجمعهم وأشرك معهم فى الرأى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وتدارسوا الأمر، فأشاروا عليه جميعا باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لا هم لهم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض فى نفوسهم، فقال عثمان: قد سمعت ما أشرتم به على ولكل أمر باب يؤتى منه، ثم أمرهم بألا يشتدوا على الناس، وأن يعطوا حقوق الله، وأن يتشددوا فى حقوق الله، وأن يحسنوا السياسة، ثم رد الأمراء إلى أعمالهم، ولم يأمر بشىء مما أشاروا به.

مؤتمر آخر من كبار المسلمين بالمدينة:

انتهى مؤتمر العمال، وعاد عثمان إلى المدينة وصحبه معاوية فى طريقه إلى الشام، وفى المدينة عقد عثمان مجلسا آخر شهده معاوية، وشهده نفر من كبار الصحابة فيهم على وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص، وألقى فيه معاوية خطبة تنم عن جرأة وصراحة، فأوصى هؤلاء النفر بالإمام الشيخ وحذرهم من الفتنة والفرقة، ولم يخل تحذيره من بعض النذير، فنهره على وكان بينهما حوار لم يخل من جفوة، ثم تكلم عثمان كلاما كثيرا فيه لين ورفق وأظهر أنه صائر إلى ما يشير به القوم عليه، فقيل له: إنك أعطيت فلانا وفلانا فاسترد ما أعطيت، فوعد عثمان بذلك ورضى القوم، وتفرقوا على شىء من الرضا.

ولما أراد معاوية أن يلحق بالشام ألقى على المهاجرين عظة بليغة ووصية بعثمان، وكان يظن أن الناس سيستقبلونه سنة ٣٥هـ بشىء من الدعة والهدوء.

معاوية وعثمان:

رأى معاوية ما رأى، وسمع ما سمع، فعرض على الخليفة ليلة سفره إلى عمله أن

(١) يروى فى سبب حقد عمار على عثمان أنه تقاذف مع عباس بن عتبة بن أبى لهب فهجم عليه وعرك أذنه فضربهما عثمان، ويروى غير ذلك وفى سبب حقد محمد بن أبى بكر، أنه كان من الإسلام بالمحل الذى هو به، وغره أقوام وكانت له دالة فلزمه حق فأخذه عثمان منه، ولم يجامل فأخفه ذلك، ويروى أنه لمكانته كان ينتظر ولاية من الولايات، وأما ابن أبى حذيفة فإنه طلب من عثمان يوما الولاية فلم يجبه إلى طلبه وقال له: لو عرفت فيك ولاية لوليتك ولكن لست هناك: فطلب منه الإذن بالخروج فأذن له وجهزه، فلما وصل إلى مصر كان فيمن تغير عليه، بل كان أشدهم عليه.

يسير معه إلى الشام، فيكون فيها آمنا منصورا فأبى عثمان أن يترك جوار رسول الله ﷺ، وأن يستبدل بدار الهجرة دارا أخرى، وقال: لا أبيع رسول الله بشيء وإن كان فيه قطع خيط عنقى: فعرض عليه أن يرسل إليه جندا من الشام يقيمون معه فى المدينة ليردوا عنه العاديات، فأبى عثمان وقال: لا أقتر على جيران رسول الله الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة.

فرحل معاوية إلى الشام، وهو موقن بالخطر النازل سريعا بالخلافة، راجعوا موضوعات إرسال الرسل والمؤتمرين، وما عرضه معاوية فى الفتنة الكبرى جـ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ و ٢١٥، ٢١٦، وعثمان لعرجون ص ٩٨ - ١٠١، والخضرى جـ٢ ص ٥٧، ٥٨، وابن الأثير جـ٢ ص ٧٧ - ٨٠، ومعاوية بن أبى سفيان فى الميزان للعقاد ص ١٤٥ - ١٤٧.

الثوار وعثمان:

كان التدبير الذى دبره الثوار أن يثوروا بعد مبارحة أمرائهم للأمصار وخروجهم للمدينة، فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض منهم إلا أهل الكوفة فقد خرجوا بحجة أنهم يستعفون من سعيد بن العاص، فخرجوا حتى إذا قابلوا سعيدا بالجعة - قرب القادسية - ردوه فرجع إلى المدينة واجتمع هؤلاء القوم على أبى موسى الأشعرى فنزل الخليفة على رغبتهم فعزل سعيدا وأقر تعيين الأشعرى - وقد سبق ذلك - وبعد رجوع الأمراء تكاتب الثوار على أن تخرج وفود من الأمصار الثلاثة لينظروا فيما يريدون، وأظهروا متظاهرين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأنهم يريدون أن يسألوا عثمان عن أشياء لتطير(تنتشر) فى الرعية فخرجت وفود الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة.

فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين ممن نالهم تأديب من عثمان، فصبرا على غير حقد، فلما رآهما أولئك القادمون لم يشكوا فى أنهما معهم، وأخبروهما بما يريدون، فقالوا: إنما نريد أن نذكر له أشياء، قد زرعناها فى قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فنزعم أنا أقررناه بها فلم يخرج منها، ولم يتب، ثم نخرج كأنا حجاج فنحيط به فنخلعه، فإن أبى قتلناه: فرجع الرجلان إلى عثمان، وأخبراه الخبر فضحك، ثم أحضر هؤلاء القوم، وجمع الناس، وأخبرهم خبر القوم.

فأشار عليه بعض المشيرين أن يقتلهم، فقال عثمان: بل نعفو ونقبل، ونبصرهم بجهدنا، ولا نحاد أحدا حتى يركب حدا أو يبدى كفرا قال: إن هؤلاء ذكروا أمورا، قد علموا منها

مثل الذى علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم، ثم أخذ يدافع عن نفسه أمام هذا الوفد وجماعة من المسلمين، حتى برأ نفسه من كل تهمة ألصقوها به وكان دفاعه كما يأتى.

التهم التى وجهت إلى الخليفة ورده عليها:

١- قال عثمان: قالوا: أتم الصلاة وكانت لا تتم ألا وإنى قدمت بلدا - يقصد مكة - فيه أهلى فأقمت فأتممت: أو كذلك هو قالوا: نعم.

٢- قالوا حميت الحمى[1] ، وإنى والله ما حميت حمى إلا لإبل الصدقة حتى لا يقع بين من يلى أمرها وبين أحد تنازع، ومالى من ثاغية ولا راغية[2] وإنى قد وليت وأنا أكثر العرب بعيرا وشاه، فمالى اليوم غير بعيرين، أو كذلك هو؟ قالوا: نعم.

٣- قالوا: كان القرآن كتبا فحرقها إلا واحدا، ألا وإن القرآن واحد، جاء من عند رب واحد، وإنما أنا فى ذلك متبع لا مبتدع، أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٤- قالوا: استعملت الأحداث، ولم أستعمل إلا محتملا مجتمعا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنهم، وهؤلاء أهل بلدهم، ولقد ولى من قبل أحدث منهم وقيل لرسول الله أشد مما قيل لى فى استعماله أسامه، أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٥- وقالوا: إنى رددت الحكم بن العاص، وقد سيره رسول الله والحكم مكى، سيره رسول الله من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله فرسول الله سيره ورسول الله رده، أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٦- قالوا: إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه، وإنى إنما نفلته الخمس من الخمس، وكان مائة ألف، وقد نفل مثل ذلك أبى بكر وعمر، فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك، فرددته، وليس ذلك لهم، أكذلك هو؟ قالوا: نعم.

٧- وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم، فأما حبى فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم، وأما إعطاؤهم، فإنى إنما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى، ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله ﷺ وأنا يومئذ حريص شحيح: أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى،

(١) الحمى الرعى: يحرم على الناس الرعى فيه، وقد حماه ابن الخطاب لإبل الصدقة، وزاد فيه عثمان لما زاد عددها فى عهده، وكان فيما يظهر أن الناس قالو إنه لم يحمها لإبل الصدقة فقط بل ولإبله وخيله وإبل بنى أمية فهو أبان أنها لإبل الصدقة.

(٢) ثغاء: الغنم ورغاء الإبل.

وفنى عمرى، وودعت الذى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا؟ وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم، وما قدم على إلا الأخماس، ولا يحل لى منها شيء؟ فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى، ولا تبلغت من مال الله بفلس فما فوقه، وما أتبلغ منه: ما آكل إلا من مالى.

٨- وقالوا: أعطيت الأرض رجالا، وإن هذه الأرض شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام فتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله، ومن رجع أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله به عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب، فنقلت إليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى (يشير إلى ما اشتراه من بعض أعلام الصحابة حين أرادوا أن يخرجوا للأمصار).

بهذا الدفاع البليغ اعتقد الخليفة أنه قد وضع الأمر فى نصابه[1] وحرك ضمائر الوافدين بالشر عليه، ما كان هذا الدفاع ليؤثر فى نفوس مريضة، وقلوب أطفأت فيها الدعاية جذوة الإيمان، وما كان يجدى فى هذا الموقف إلا أن يأخذ بنصح المخلصين من الصحابة فيقتلهم، ويجعلهم عبرة لغيرهم وسلفا ومثلا لمن وراءهم، أو يحبسهم فى المدينة تحت رقابة شديدة حتى لا يمكنهم من الرجوع إلى مواطن الفساد للقيام بدعاية سيئة ضد عماله: ولكنه رق ولان كما هى عادته فرجعوا إلى أمصارهم مطويين على ضغن يأكل أكبادهم ويحرق أفئدتهم.

خروج الثوار من أمصارهم للمدينة:

ولما عادوا إلى بلادهم تكاتب الثوار واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم فى موسم الحج سنة ٣٥ كأنهم حجاج أو عمار، ثم يجتمعون فى المدينة للانتهاء من أمر الخليفة، وفى الموعد المضروب خرج من مصر عدد يتراوح بين الستمائة والألف يقودهم الغافقى بن حرب العكى، وكان معهم ابن سبأ، وخرج من الكوفة عدد مماثل لعدد أهل مصر بقيادة عمرو ابن الأصم، ومن البصرة عدد كذلك بقيادة حرقوص بن زهير السعدى وكانت أهواء الأمصار الثلاث مختلفة، فأهل البصرة يريدون طلحة لأن ضياعه الواسعة فى مصر، وأهل الكوفة

(١) اقتصر عثمان على ما ذكر، وكانوا قد نقموا عليه مسائل أخرى، تقدم الكثير منها وعرفتم وجهة النظر، وهذه المسائل عفوه عن عبيد الله بن عمر، وعدم أخذه بمن قتلهم، وخروج أبى ذر للربذة، وجعله ابن أبى سرح أميرا عاما للبحرية فى موقعة ذات الصواري، وسياسته فى العزل والتولية، وبناؤه لسبع دور بالمدينة لنفسه، وأزواجه وبناته، وتشييده لبعضها بالحجارة والجير، وتوليته لأقاربه وترك كبار المهاجرين والأنصار، وضربه لابن مسعود حتى كسر ضلعا من أضلاعه، وهذه أمور كانت تغضب بعض الناس، ولكنها كانت تتخذ شكلا مشوها، ومن السهل الإجابة عنها - فراجعوها فيما سبق وفى مكانها من مثل الفتنة الكبرى ج١ ص ١٧٩ - ١٨٦، والفتح الإسلامى ص ٢٩١ - ٢٩٣، وإنصاف عثمان ص ٥٧ - ٥٩، وابن الأثير ج٣ ص ٦٩ - ٧٤.

يريدون الزبير لأن أملاكه فى بلدهم، وأهل مصر يريدون على بن طالب لتعاليم ابن سبأ، ولوجود ربيب على محمد بن أبى بكر، ومحمد بن حذيفة بينهم، وعلى بعد ثلاثة مراحل من المدينة عسكر الثوار، واتفقوا على إرسال رائدين يرتادان لهم الطريق، ولينظرا هل وصل المدينة خبرهم أم لا؟ لأنهم كانوا يخافون أن يستعد أهل المدينة لهم بحرب، فأرسلوا زياد بن النضر الحارثى، وعبد الله بن الأصم فدخلا المدينة ولقيا أمهات المؤمنين، وعليا وطلحة والزبير، وقالا: إنما نؤم هذا البيت، ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا، ما جئنا إلا لذلك واستأذناهم فى دخول الثوار، فكلهم أبى ونهى وكلهم استعد لحماية دار الهجرة فرجعا إلى قومهم بالخبر، فجاء جماعة من المصريين إلى على، وجماعة من البصريين إلى طلحة، وجماعة من الكوفيين إلى الزبير، وعرض كل جماعة بالإمرة لصاحبهم فرد عليهم هؤلاء الزعماء ردا شديدا فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون لأمصارهم كى يتفرق أهل المدينة ثم يكروا راجعين، واعتقد أهل المدينة أن الخطر قد زال فاستأنفوا حياتهم على ما ألفوا من أمن وهدوء.

ولكن ما كان أشد دهشتهم عندما باغتهم هؤلاء الثائرون مكبرين فى أرجاء المدينة محيطين بدار عثمان، منادين من لزم داره فهو آمن، ومن كف عنا أذاه فهو آمن.

شمل المدينة الفزع، فأعرضوا عن مناوأة هؤلاء الأشرار ولزموا مساكنهم، ما عدا على ابن أبى طالب فقد ذهب إليهم فى جماعة من أصحابه وسألهم عن سبب رجوعهم: فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا يقتلنا وقال الكوفيون، والبصريون جئنا ننصر إخواننا، فقال لهم على: كيف علمتم يا أهل البصرة ويا أهل الكوفة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر دبر بالمدينة، قالوا: فضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا فى هذا الرجل فليعتزلنا، قم معنا إليه: فقال على والله لا أقوم معكم، قالوا: فلم كتبت إلينا؟ فعجب وقال: والله ما كتبت لكم كتابا، فنظر بعضهم إلى بعض فى دهشة، ثم دخلوا على الخليفة بالكتاب فقالوا: كتبت فينا بكذا كذا، فقال: إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين، أو يمينى بالذى لا إله إلا هو، ما كتبت ولا أمليت ولا علمت، وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم، فقالوا بصوت واحد وبخشونة غير معهودة فى حضرة الخليفة سواء تقول الصدق أو تكذب قد والله أحل الله لنا دمك، ونقضت العهد والميثاق، واتهموا مروان بن الحكم – مشيره ورئيس ديوانه – بكتابة الكتاب وطلبوه من عثمان فأبى خشية أن يقتلوه.

وفى الحقيقة أنهم كانوا يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة، وهو يأبى أن يعتزل ويقول: لا أنزع قميصا ألبسنيه الله تعالى.

وقبل أن نسير مع الأحداث يجمل بنا أن نحقق مسألة الكتاب حتى لا يضيع فى خضم الحوادث.

التحقيق:

يرى الكثير من المؤرخين لهذه الحقبة الغامضة من التاريخ أن الكتاب مفتعل ومزور وأنا معهم فى هذا الرأى والأدلة على ذلك ما يأتى:

أولا: أن الرواة لم يتفقوا على تحقيقه - فطورا هو كتاب لابن أبى سرح بقتل المصريين الوافدين على المدينة وحدهم دون إخوانهم البصريين والكوفيين ولو صح قصد الغدر من دار الخلافة لكان الكتاب إلى أمراء الأمصار الثلاثة، للتخلص من جميع المفسدين، وهذا ما كان يراد من دار الخلافة قبل أن يستفحل الأمر.

وطور آخر يقول: إن الثوار طلبوا من الخليفة عزل ابن أبى سرح وتعيين محمد بن أبى بكر فأجابهم، وفى الطريق ضبطوا البريد بكتاب فيه أمر ابن أبى سرح بقتل ابن أبى بكر ومن معه، ولم يثبت أن الخليفة عين بن أبى بكر؟

ثانيا: أنه لو كان الخطاب حقا لأتى به جماعة المصريين وحدهم ولكن ظهور البصريين والكوفيين معهم بعد أن افترقوا مراحل دليل حيلة مدبرة ومتفق عليها منهم جميعا، على أن المصريين لو أرادوا إطلاع إخوانهم البصريين والكوفيين على الكتاب ما تسنى لهم أن يصلوا إلا عن طريق المدينة ولو فعلوا لوصلوا المدينة فى الوقت الذى يكون فيه الفريقان الآخران قد وصلوا فيه إلى بلادهم فمن المحال إذن أن تجتمع الوفود الثلاثة فى المدينة إلا إذا كان هذا عن تدبير سابق، وقد أظهر على بن أبى طالب كذبهم فى هذا الدعاء وقال: هذا أمر دبر بالمدينة: فلم يجيبوا، وقالوا مقالهم السابق.

ثالثا: يقول الدكتور طه حسين جـ١ ص٢٠٩: ليس بمعقول ولا مقبول أن يكيد عثمان هذا الكيد للمسلمين، فيعطى فريقا منهم الرضا، ثم يرسل إلى عامله سرا أمرا بقتلهم، وليس بمعقول ولا مقبولا أن يجترئ مروان على الخليفة فيكتب هذا الكتاب، ويمضيه بخاتمه، ويرسله مع غلامه على جمل من إبله.

رابعا: القصة تحمل أدلة وضعها وبطلانها، فكيف يعقل أن يولى عثمان بن أبى بكر - بفرض صحة توليته - على مصر ويكتب له بعهده عليها ويبعث معه جماعة من المهاجرين

والأنصار، ثم يأتى إنسان له ذرة من العقل مروان أو غيره يريد نقض ما أبرمه الخليفة، بل ويريد قتل صاحب العهد ومن معه فى إحدى الروايات أو قتل جماعة من المسلمين فى الرواية الأخرى، فيرسل فى الطريق التى سلكها ابن أبى بكر أو غيره، بغلام الخليفة على بعيره، ويختم بخاتمه كتابا يأمره فيه بقتلهم.

خامسا: أما أن الخطاب يحمل خاتم الخليفة فأمره ميسور لأن فى الإمكان تقليده، وهذا هو ما اعتذر به عثمان حينما اطلع على الخطاب، والقول بأن حامل الخطاب كان من خدم عثمان، وأن مروان كتبه دون أن يعلم الخليفة لا يقوم عليه دليل ولا شبه دليل، بل هو مجرد ادعاء، وقد طلب الخليفة منهم البينة على ذلك فما استطاعوا إليها سبيلا، وكان إحضار الخادم ليدلى بأقواله حتى يلقى على ذلك الخطاب نورا أقل ما يجب عليهم، بل كان يجب عليهم القبض عليه وإحضاره معهم، وإذن لم يكن هناك كتاب لا من مروان ولا من غيره وإنما المسألة كما قدمنا، أن العصاة لما وجدوا من أهل المدينة استعدادا للدفاع عن الخليفة، وأخفقوا فى استمالة الزعماء إليهم ركبوا متن الخديعة فأظهروا العودة إلى أمصارهم، ولكنهم كانوا فى الواقع مصممين على العودة منتحلين سببا فخلقوا مسألة الكتاب، وكان تزوير الكتب معروفا قبل ذلك فقد زور معن بن زائدة كتابا على عمر بن الخطاب ونقش عليه خاتما كخاتم ابن الخطاب، وبمقتضاه أخذ مالا من بيت مال المسلمين بالكوفة.

وقد وضح من مناقشة على للثوار أنهم زوروا عليه كتبا، وروت المصادر أنهم زوروا على طلحة وعلى الزبير وعلى لسان أمهات المؤمنين، فالتزوير على عثمان ليس بدعا من الأمر[1].

إيذاء الخليفة وحصاره فى منزله:

بعد هذا الكتاب المزور، قبض العصاة على ناصية الأمر بالمدينة غير أن الخليفة وأصحابه كانوا لا يزالون يختلفون إلى المسجد لإقامة الصلاة، وفى يوم الجمعة التى تلت نزول الثوار المدينة، قام الخليفة ليخطب الناس حاثا العصاة على الطاعة فعلا ضجيجهم وصخبهم داخل المسجد، وأثاروا الشغب والاضطراب، وأجلسوا من هب من كبار الصحابة لشد أزر الخليفة كزيد بن ثابت، وصاروا يرجمون الخليفة وأصحابه بالحجارة حتى خر مغشيا عليه

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٤٨، ٤٤٩، وعثمان ص ١٢٦ – ١٤٣، وإنصاف عثمان ص ٣٢، ٣٣، ٦٣ – ٦٧، الفتح الإسلامى ص ٣٧٧ – ٣٧٨، والفتنة الكبرى ج١ ص ٢٠٩، ٢١٠.

فنقل إلى داره، وجاء على وبعض أصحابه لزيارته والتحدث معه فيما يقمع هذه الثورة، وبذل وعود خرج بعدها إلى الصلاة ثلاثين يوما، ثم منع من الصلاة فلزم داره، واجترأ الغافقى زعيم الثوار المصريين على إمامة المسلمين فى الصلاة بدل الخليفة ولزم أهل المدينة بيوتهم لا يجلس أحد إلى أحد ولا يخرج إلا بسيفه ليتمنع به.

وفى تلك المحنة طلب عثمان أن يحضر إليه طلحة والزبير فحضروا وأطل عليهما الخليفة من سطح الدار وخطب فى حضرتهما خطبة طويلة، قال فى أثنائها: قد دعوت الله أن يهديكم بعدى إلى انتخاب خليفة يرضى به كلكم وكان على بن أبى طالب فى ذلك الوقت استيأس، ومل التردد بين عثمان والثوار، ومثله محمد بن مسلمة، فقد كان مروان يقضى بتدبيره على كل أمل فى حل المشاكل، وكان على يعلم ذلك ويشكو منه دون جدوى.

وكانت حاشية عثمان من بنى أمية ترى أن لعلى ضلعا فى هذا الأمر فكانت الوجوه تتقابل عابسة فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح فى مصلحة المسلمين.

اشتداد الحصار:

كان عثمان طلب من الأمصار النجدة، وسمع الثائرون بقرب وصول النجدات فضيقوا الحصار عليه من جميع النواحى ومنعوا دخول كل شىء إلى دار الخليفة حتى الماء منعوه عنه ليموت عطشا، فأرسل عثمان إلى على سرا وإلى طلحة وإلى الزبير وإلى أزواج النبى، إنهم قد منعونى الماء فإن قدرتم أن ترسلوا إلينا ماء فافعلوا فكان أولهم إجابة على، فقد جاء فى الغلس، وقال للمتمردين: إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة فإن الروم والفرس لتأسر فتطعم وتسقى، وجاءت أم حبيبة زوج النبى ﷺ بماء وحاولت توصيله، فذهبت محاولتها عبثا وآذاها الثوار، وكادوا يقتلونها، ولولا أن الماء كان يأتى عثمان خلسة من دار آل حزم - جيرانه - لمات عطشا.

ولقد أطل عليهم عثمان آنذاك وتحدث إليهم بحديث يذيب ميت القلوب فما أبهوا لقوله، وما أجابوا دعوته.

وجاءت آخر سنة ٣٥هـ وحان موعد الحج فلم ينس الخليفة وهو فى أشد الحالات واجبه كخليفة فصعد على سطح داره ونادى عبد الله بن عباس - وكان قد لزم باب الدار دفاعا عنه - وولاه إمارة الحج وكتب معه كتابا مطولا يقرءوه على المسلمين فى الموسم

ويعلمهم بما هو فيه، فسار ابن عباس أميرا على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين، ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان.

قتل عثمان فى ١٨ من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ - ٢٠ مايو سنة ٦٥٦م:

انتهز الثوار فرصة خلو المدينة من أهلها وشاع بينهم بأن أمداد العراق قد دنت من المدينة، وبأن أمداد الشام قد انتهت إلى وادى القرى، ونما إليهم أيضا أن الحجاج يريدون الرجوع من الموسم ليوقعوا بهم، ويضموا ذلك إلى حجهم ليكون أعظم أجرا فقالوا: لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا، فحاولوا اقتحام باب الدار فمنعهم الحسين بن على، وابن الزبير، ومحمد بن طلحة، وعبد الله بن عمر، ومن معهم من بنى أمية[1] ولكن الثوار رأوا الخطر محدقا بهم، فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسور الدار من دار مجاورة.

ولما رأى عثمان ذلك استسلم للقضاء، وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف، ودخل على الخليفة جماعة منهم محمد بن أبى بكر، وهاجم عثمان يريد قتله فوجده يقرأ القرآن فى هدوء فأحجم، ويروى أنه أمسك بلحية الخليفة فقال له: أرسل لحيتى يا ابن أخى فلو رآك أبوك لساءه مكانك، فاستحيا، ورجع إلى الوراء فتقدم الغافقى وضرب الخليفة بحديدة كانت معه، وجاء سودان بن حمراء ليضربه بالسيف فأكبت عليه زوجه نائلة بنت الفرافصة، واتقت السيف بيدها فقطع أصابعها، ثم توالت الضربات على الشيخ الكبير، وهو مكب على كتاب الله لا يتحرك حتى قتل، وسال دمه على المصحف الشريف، ثم انتهب القتلة ما فى البيت وأتوا بيت المال فأخذوا ما فيه، وبقى الخليفة الثالث لرسول الله ثلاثة أيام من غير دفن، ثم دفن ليلا فى غفلة من خصومه فى البقيع – ٢١ من ذى الحجة سنة ٣٥هـ.

هكذا كانت نهاية الشهيد الجليل، وفى قتله روايات كثيرة، وفيها من التفاصيل ما يعطينا صورة تقشعر منها الأبدان وتشيب لهولها الولدان فراجعوها فى الطبرى ج٣ والبداية والنهاية لابن كثير والعبر لابن خلدون.

---

(١) يرى الدكتور طه أن أهل الدار هم الذين بدأوا مناوشة الثوار، لأن أخبار وصول الأمداد بلغت مروان، فظن إنه يستطيع زحزحة المحاصرين عن الدار، ومقاتلتهم حتى تأتى الأمداد وكره أن يعتد عليه معاوية أو ابن عامر بأن جنودهما قد أدركتهم محصورين فى الدار ففرجت عنهم الحصار، وردت إليهم الحياة. الفتنة جـ١ ص ٢١٣ ، ٢١٤.

مسئولية قتل عثمان:

جرت عادة الكاتبين أن يحاولوا تحديد مسئولية قتل وإلقاء التبعة على فريق دون آخر، أو توزيعها توزيعا غير عادل، فيظلم فريق ويحابى فريق آخر لنزعة خاصة فقد اتهم بعض المؤرخين عليا بالهوادة فى نصرة عثمان، بل قالوا إنه أسلم عثمان للثوار فحمله تبعة قتله، وكأن عليا كان الأمة بأسرها أو أنه إن شاء أطال عمر عثمان وإن شاء قضى عليه، ويخلقون عداوات بينه وبين عثمان وإن المتتبع للأحداث يرى أن عليا لم يقصر، وقد نصح مرارا ولكن لم يسمع لقوله وأخيرا خرج أو على الأصح طلب إليه الخروج إلى ماله بينبع ومع ذلك ترك أبناءه على باب عثمان.

ولما اشتد الحصار على الخليفة أرسل إليه كتابا رواه المبرد فى كتاب الكامل، قال فيه: أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيعين، وبلغ الأمر أشده، ثم تمثل بهذا البيت:

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فـأدركنـــى ولـمــا أمـــزق

فبادر على إليه، ولكنه لم يدرك من أمره شيئا، وكان أمر الله قدرا مقدورا - راجعوا جهد على والصحابة فى ابن الأثير ج٣ ص ٨١ - ٨٧، وإنصاف عثمان ص ٧٤ - ٨٧، والفتح الإسلامى ص٣٩٠، ٣٩١.

وكما غالى فريق فى على وحاول تحميله تبعه قتل عثمان، غالى فريق آخر فحمل عثمان أكبر نصيب من التبعة، فجعل سيرته السبب الأول والأخير للفتنة، وغالى فريق ثالث فحمل تبعة الفتنة ابن سبأ.

والواقع أن الثورات بصفة عامة تختلط فيها المسائل ولا تتبين الحقائق وثورتنا هذه أشد غموضا لأننا فى عصر لا صحف فيه ولا وزارة للداخلية بل لا تدوين، قد تفرق فيه المسلمون شيعا وأحزابا وكل يدلى بوجهة نظره، تحكمه عاطفة خاصة، وتملى عليه نزعة من النزعات.

على أن هذا لا يمنعنا من أن نسلط الأضواء الكاشفة على هاتيك الأحداث حتى نتمكن من إعطاء حكم يكون قريبا من الحقيقة إن لم يكن هو الحقيقة فكان موقف عثمان يتلخص فيما يلى:

١ - تسامح مع المتمردين مع ما ناله من أذى فى نفسه، وهذا وإن حسن عند الحكماء،

فلا يحسن أبدا فى سياسة الرعية، بل لابد لمقام الخليفة من هيبة فى القلوب، وقد نصحه الكثير باتباع الشدة. راجعوا عزل الولاة وتوليتهم، ورأى المشيرين فى الوافدين عليه بالشر، ودفاعه عن نفسه.

ويبدو لنا أن تسامحه يرجع إلى خوفه من أن يكون فاتحا لباب الفتنة.

٢ – تمسك بمنصب الخلافة، طلب الثوار غير مرة من عثمان أن يتنازل عن الخلافة فأبى، وقال: لا أخلع قميصا كسانيه الله عز وجل، ويقول رفيق العظم: إن عثمان لم يعتزل لا حبا فى الرياسة، ولكن لسبب من ثلاثة:

أ – ضعف الإرادة الناشئ عن كبر السن.

ب – وإما خوفا من أن يتهم نفسه بالعزل فيسجلون عليه ما اتهم به من الأحداث مع اعتقاده أنه يستحل محرما فيم فعل، فلم يكن يرى مبررا خلع نفسه ولو رأى مبررا لما تصلب إلى هذا الحد.

جـ – وإما عملا برأى مروان وأضرابه من الأمويون، وكان الأمويين يزينون له التمسك بها (أشهر مشاهير الإسلام جـ٤ ص ٨٠٠) وفى رأيى أنه تمسك بمنصب الخلافة لأنه رأى الصديق وعمر قبله بقيا فى الخلافة إلى الرمق الأخير فلا يريد أن يستن سنة خلع الخلفاء، إذا لم يرض عنهم بعض الرعية، وهو لو أجاب الخارجين إلى خلع نفسه من الخلافة لأصبحت ألعوبة فى أيدى المفتونين الساعين فى الأرض بالفساد، ولسادت الفوضى، ولما استتب الأمر لأن كل جماعة تريد الخلافة لصاحبها فكان لابد من قيام حرب أهلية كالتى قامت فيما بعد فى عهد على، وأيا ما كان الأمر فقد كان تمسكه من أسباب التعجيل بمصرعه.

٣ – كان يحسن بالخليفة وقد رأى طلائع الفتنة من زمن بعيد أن يضع حول المدينة حامية قوية بحيث لا يطمع فيها طامع، وقد أشار عليه معاوية بذلك فأبى كما سبق، ولو أن الخليفة أجاب تلك الرغبة أو تنبه لهذا الأمر قبل اشتداد الفتنة لكان ذلك النظام خليقا بأن يضرب حول المدينة نطاقا من الهيبة، وكان لا غضاضة على عثمان فى هذا، لأنه وإن لم يكن معروفا من قبل إلا أن لكل عصر ما يناسبه.

٤ – ما خالف به عثمان عمر فى أعلام قريش من السماح لهم بالخروج إلى البلدان، وقد سبق ذلك وغيره مما اتهم به فراجعوه.

مسئولية عماله:

١ - إن الكثير منهم لم يكن حذرا يقظا فقد تربت الفتنة تحت أعينهم فى ثلاث إمارات يحكمها أقرب الناس إلى الخليفة وهى مصر والكوفة والبصرة ولو كانت رقابتهم شديدة لما وجد الثائرون سبيلا لجمع شتاتهم والسير إلى عثمان سنة ٣٥، مع أن هناك ما يدفع لتشديد الرقابة، فإنه سبق للثوار الذهاب إلى المدينة بحجة سؤال الخليفة عن أشياء أنكروها عليه.

٢ - محاولتهم درء الخطر عن أنفسهم وعن أقاليمهم بنفى من يظهر برأى أو دعاية، وكان الأجدر بهم حبسه حتى لا ينتقل إلى قطر آخر فيفسده.

٣ - بطئهم عن نصرة خليفتهم حينما أرسل إليهم يستنجد بهم، وقد كان الحصار أربعين يوما فيما يروى وأكثر من هذا أن عثمان كان قد عود عماله أن يوافوه فى موسم الحج من كل عام، فلماذا أقاموا فى أمصارهم هذا العام، ولم يشهدوا الحج؟

وأما موقف أهل المدينة؟

فكانوا قد تفرقوا فمنهم المحرض فى الخفاء كعمرو بن العاص ومنهم العامل فى الثورة كمحمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة وعمار بن ياسر، ومنهم القاعد المحايد الذى كسر سيفه وجلس فى بيته كسعد بن أبى وقاص، وقليل منهم المعين للخليفة ولو كانوا على قلب رجل واحد لما تمكن الثوار من قتل عثمان والاستبداد بالأمر والتحكم فى المدينة ومن بها، بدليل أنهم انتهزوا فرصة غيبتهم فى موسم الحج وصنعوا ما صنعوا وربما كانوا يظنون أن الأمر ينتهى إلى مضايقة الخليفة فيعزل نفسه، أو يسلم إلى الثوار مروان بن الحكم على الأقل فيستريح الناس، وأما القتل فما كان يظن وقوعه، ولشدة احتياط الصحابة بعثوا أولادهم فوقفوا على باب عثمان، واستماتوا فى الدفاع، حتى صرفهم عثمان حبا فى عدم إراقة الدماء (راجعوا هامش ابن الأثير جـ٣ ص ٩٠، ٩١).

وأما ابن سبأ:

الذى يحملونه تبعة الفتنة فقد عرفتم رأينا فيه، وهو أن دوره بولغ فيه محاولة إلقاء التبعة على عنصر طارئ على المسلمين، وإذن فتبعة قتل عثمان، إن كان يصح أن توزع فهى موزعة على الثوار بما أذكوه من الفتن، وما سفكوه من دماء، وعلى عثمان وأعوانه

وعماله لإهمالهم وضعف سياستهم، وعلى من ساعدهم من أهل المدينة بالفعل أو القول.

والحق الذى لا مراء فيه أن ظروف الحياة كانت أقوى من الجميع وأن التطورات العامة هى التى خلقت الأحداث وأدت إلى قتل عثمان، ومهما كان الاختلاف فى عثمان وغيره، فإنه مما لا شك فيه أن الله لم يحل دم عثمان لقاتليه، ولكن هكذا أراد الله وذهب عثمان ضحية، فهل استراح المسلمون واستقرت الأمور؟ لا، بل تعقدت أكثر وزادت التواء، فقد مزقت الحروب الأهلية التى تلت قتل عثمان وحدة المسلمين شر ممزق، ولم يندمل بعد الجرح الذى أحدثته هذه الحروب، فلم يكد المسلمون يفرغون من بيعة على حتى وقع الخليفة الجديد بين بنى أمية من جهة وبين عائشة وطلحة والزبير من جهة أخرى، فوقعت الحرب بين على وأصحاب الجمل، وبين على ومعاوية وبيان هذه الأحداث فى عصر على بن أبى طالب الخليفة الرابع لرسول الله ﷺ، الذى كان قتله نهاية وبداية، نهاية الدور الأول من الفتنة، وبداية الدور الثانى.

* * *